
سقوط القاهرة
قصص
رمضان سلمي برقي

سقوط القاهرة

مجموعة قصصية

رمضان سلمي برقي

«الفهرست»

سقوط القاهرة

تُرى هل قتل الأمل ودُفن أسفل كومات من جليد، أم دُفن حياً، وعند مقدم الربيع سيذوب الجليد القابع فوق أنفاسه، ويعود إلى الحياة من جديد، ومن ثم يعود الحب، ولكن كم مر من ربيع ولم يحدث شيئاً!..

في شقتي بالطابق الرابع ببناية في "حدائق الأهرام" أَنْتَصِبُ خلف النافذة الزجاجية الكبيرة مبكراً، أتأمل شارداً، السماء الغائمة ذات النور الأبيض الخافت، وطبقات الجليد المتراكمة فوق الأهرامات، وأراقب الندف البيضاء المتأرجحة بالهواء..

أنْظُرُ إلى الطريق؛ أجد قليل مِنْ السيارت المضرجة بندف الثلج تمر مِنْ فينة لأخرى، أُغْلِقُ الستار، أَدْلِفُ صوب الكرسي أمام المدفأة الكهربائية بباحة الشقة الواسعة، ذات الأساس التليد، مرتدياً معطفاً اتقاءً للبرد.

أَجْلِسُ، أَشْعِلُ سيجارة؛ فتنساب أعمدة الدخان من فمي بغزارة كدخان قطار الفحم، وتمر لحظات وأتذكرُها..

****

وقتذاك؛ لمَّا كانت بداية العصر الجليدي - وقت فراقها لي - كانت بالعشرين من عمرها، وأَنَا كنت بالخمس وعشرين من عمري، ولازلتُ أذكر تقاسيم وجهها الشمعي الأبيض، وعينيها السوداوان الواسعتان؛ كانت مرتديةً معطف أحمر بفرو، موارية رأسها داخل البرنس، وسروال مِنْ الجينز، وكانت تقترب مني بقامتها المتوسطة، مهرولة في حذائها ذي الرقبة الفرو فوق أكوام الجليد في "ميدان الرماية" تتعثر تارة وتستقيم تارة..

كنتُ منتصباً على قارعة طريق متفرع من الميدان ومسجاة على جانبيه أكوام الجليد، وأشجار خوت على عروشها، ومنازل اعتلتها طبقات الجليد الأبيض البراقة، وفنادق بدأت تدب فيها الحياة من جديد، وقد كنت مرتدياً معطفي الأسود، وسروالي الجينز غير مبالٍ لقامتي الطويلة، وجسمي الهزيل، وشعري الجعد المنكوش، ولحيتي وشاربي المهملين ..

كنت أَنْفُخُ من فمي الأبخرة ممتزجة بدخان سيجارتي، وقفت "غادة" غير بعيد، لَوَحَت بكفيها المدثران بقفازان مبتسمة، ثم اِقْتَرَبَتْ أكثر وصاحت:

- ليتك تَأتِ معنا يا جمال؟.

أطرقتُ رأسي، ألقيتُ السيجارة أرضاً، ثم رفعتُ رأسي، صِحْتُ:

- غادة... لن أتركها أبداً!.

ضَحِكَتْ، هرولت صوبي، تعانقنا، أغمضنا أعيننا؛ تناسينا الجليد والبرد، علتْ زفراتنا وتنهيداتنا. وقتذاك؛ كان حضنها بمذاق الموقد؛ ذلك الموقد الذي اشتعل فجأة ليُصهر عجزي وحزني ويطفران على هيئة دموع من عيني..

كان الوقت عصراً والميدان خالٍ من المارة، إِنْفَكَتْ عني بعد لحظات مرت عليَّ كما السنين، قلتُ دامعاً:

- سآلف الجليد!.

كَفْكَفَتْ غادة دمعاتها، قالت:

- والفراق؟.

- هو أيضاً جليد!.

كَفْكَفَتُ دمعاتي، استدرتُ، تأملتُ "خوفو" قلت:

- هل كان يتوقع المصريون قديماً أن الأهرامات ستغطى بالجليد يوماً ما؟

اِقْتَرَبَتْ من خلفي، أَسْنَدَتْ كتفها إلى عامود إنارة بجواري دافنة يديها بجيبي معطفها، نَظَرَت إلى هضبة الأهرامات الراقدة بين أكوام الجليد، قالت:

- مر عليها آلاف السنين ولم تتأثر بأي تغير للمناخ أو أي تناوب للحضارات -ثم نظرَت إلى- أَتَعْتَقِدُ أن الجليد سيفتت أحجارها قريباً؟.

تَنَهَّدْتُ بعمق، صمتنا لحظات، قلت:

- ستحتاج لآلاف من السنين تحت الجليد لتبدأ في التآكل؛ وقتها لربما تكن نهاية الحياة على الأرض!.

ضَحِكْتْ، أَخْرَجَتْ يدها من جيببها، اقتربت مني، مسكت بيدي المدثرة في قفاز صوفي، قالت:

- أَتَذْكُرُ تلك المظاهرة؟.

اِبْتَسَمْتُ، قلت:

- لم ولن أنس بالطبع؛ كان هذا منذ خمس سنوات، لما نزلنا إلى "ميدان التحرير" لندعم الجيش لاسترداد سيناء من الإرهابيين؛ كنا صغاراً وقتذاك، لم تجمعنا الجيرة فقط بل الحب أيضاً.

- وانْفَجَرَتْ القنبلة في قلب الميدان، وأُصِبْتُ في ساقي.

نَظَرتُ لها، قلت:

- وحَمَلْتُكِ وهَرْوَلتُ بكِ صوب الاسعاف بأحد الشوارع الجانبية، وكُنْتِ تصرخين من الألم رغم أن إصابتكِ كانت سطحية!.

ضَحِكَتْ، قالت:

- أَنَا رقيقة لا أتحمل رؤية الدماء!.

ضَحِكْتُ، عُدْتُ ببصري أتأمل "خوفو" قالت:

- وفجأة؛ انفجرت سيارة الإسعاف قبل أن نصلها، وسقطنا أرضاً، وَأُصِبْتَ بشاظية أَنْتَ في ذراعكِ، وأُصِبْتُ أَنَا ثانية!.

تَنَهدْتُ بعمق، قُلت:

- أتذكرين آنذاك؛ لما حملتكِ وشققت بكِ الشوارع المكدسة بالفوضى والصراخ، كُنْتِ في الخامسة عشر من عمرك؛ مرتدية تنورة سوداء ممزقة من الأسفل من أثر الإصابة بالشاظية، وقميص أبيض، وشعرك بلا غطاء ناعم منسدل على كتفيكِ، وكُنْتُ قد ربطتُ بغطائه على جرح ساقكِ لإيقاف الدم، ولما قاربنا على صعود الجسر لنعبر إلى جهة النيل الأخرى؛ أوبلتنا السماء بالصواريخ؛ وساد الفزع والهرج والمرج، وتساقطتْ من حولنا المباني من أبراج وعمارات لتصير أكواماً من الهديد، تخيلنا لوهلة أنها القيامة، كُنْتِ تصرخين قائلة:

- كل هذه أحلام ليست حقيقة!.

رَكَضْتُ بكِ فوق الجسر و أَنْتِ ملقاة فوق كتفي ويداي تطوقان ساقيكِ صوب الجهة الأخرى. وقتذاك؛ ساد صمت بداخلي، لم أعد أسمع سوى ضربات قلبي، ومن حولنا السيارات المحطمة والمشتعلة نتيجة التدافع، ونتيجة انفجار السيارات المفخخة، وهلع الناس وصراخهم ممن يركضون فزعين في كلا الاتجاهين.

سقطتُ بكِ أكثر من مرة، وداسونا بأقدامهم أكثر من مرة، لكني لم أَتَخَلَ عنكِ، كُنْتُ أَشْعُرُ بأنكِ روحي، وتركِكِ نهايتي.

قاربنا من الوصول إلى نهاية الجسر، وفجأة؛ اِنْقَسَمَ الجسر إلى نصفين بقصف الصواريخ الغريبة التى لم نعرف كُنْهُا وقتذاك، وتساقط الناس بالنيل كالجمر المشتعل، وتَنَافَستْ صرخاتهم مع ضربات قلبي؛ أنزلتكِ حينئذ وتوقفنا نشاهد مايحدث مشدوهين، والنار تَلْمَعُ بحدقات عيوننا، والصواريخ تتساقط فوق أبراج البنوك والفنادق والمباني الحكومية فتخر أرضاً، والناس من حولنا يهربون من الموت، ويتخبطون بنا عن اليمين وعن الشمال كالسكارى. هَمَمْتُ بحملكِ، صَرَخْتِ بي:

- هيا نركض؟.

ركضنا معاً بين الشوارع، كان القصف الصاروخي على أشده شرقي النيل، لكن بالجهة الأخرى كانت الضربات متناثرة بعيدة عن بعضها البعض، حاولنا استخدام الهواتف المحمولة، لكن وجدنا تغطية شبكات المحمول قد سقطت، جلسنا نلتقطُ أنفاسنا بأحد الطرقات في ظل شجرة عظيمة،

وفجأة؛ ضَجَتْ السماء بأزيز الطائرات الحربية، وبعدها بساعة أو أكثر خبت أصوات القصف رويداً رويداً.

قمنا لنواصل السير حتى وصلنا إلى مستشفى صغير لم يهدم، وقامت طبيبة طاعنة في السن بإسعافنا، كنا مذعورين فاقدين لشهية الكلام، جالسين بجوار بعضنا البعض على سرير واحد، قالت الطبيبة وقتذاك:

- قدَّر ولطف!.

صَرَخْتِ أَنْتِ ضجرة:

- هل كل ماحدث حقيقة؟.

- حقيقة مؤسفة... لكن طائراتنا خرجت محمَّلة بالصواريخ والجنود وسنسترد سيناء في غضون ساعات إن شاء الله وسنلقنهم درساً لن ينسوه!.

تَمْتَمْتُ أَنَا:

- نحن مَنْ لن ننسى درسهم أبداً ماحيينا!.

اِنْخَرَطْتِ أنتِ في البكاء، طوقتكِ بين ذراعي، ورحت أُرَبِّتُ على ظهركِ وأبكي مثلكِ... حقاً؛ ذكريات لا تنسى، واستردناه خلال الأعوام اللاحقة، بعد صراع مرير..

فجأة؛ وبعدما استرجعتُ معها أهم حدث في ذكرياتنا؛ ترَكَتْ يدي، زَفَرْتُ بضيق، قالت:

- مصر وَلَجَتْ عصر جليدي لم يتوقعه أحد كما ترَ، وأبي لم تعد له فرصة عمل هنا، لذلك سنسافر إلى أوربا جميعاً، فكما تعرف؛ المناخ هناك أصبح على النقيض من مناخنا، لكن أعدك، في أول فرصة سانحة سأعود إليك، ربما وقتها تكون قد ضبطت أمورك، وحصلت على عمل - ثم ضحكت بألم - وتكن قد ألفت الجليد!.

لم أجبها، وَضَعْتُ يدي بجيبي، أَخْرَجتُ السجائر، أشعلتُ واحدة، ورحت أتجول ببصري في أرجاء الميدان، متلاشياً النظر إلى عينيها، نافخاً دخاناً أحمراً مضرجاً بدماء قلبي الدامي، قالت:

- سأشتاقُ لك؟.

اِسْتَدَرْتُ؛ حدجتها، صَرَخْتُ:

- كاذبة!.

اِنْفَجَرَتْ بالبكاء، وخبأت عينيها خلف كفيها، تَنَهَدْتُ بضيق، اِقْتَرَبْتُ منها، اِحْتَضَنْتَها بشدة، أَغْمَضْتُ عيناي فَطَفَرَ دمعهما، وبعد دقائق؛ علا نحيبها وتَفَلَتتْ من بين أحضاني؛اِبْتَعَدَتْ، رَكَضَتْ بعيداً، وتوارت خلف ندف الثلج، وخلف الدموع، وخلف ساعات السنين وأيامها ولياليها..

لم أعد إلى البيت يومها؛ لم أشأ رؤيتها راحلة، طُفْتُ بين الطرقات والميادين المدثرة بأكوام الجليد شارد الفكر، منقبض القلب، دامع العينين، أَسْتَعيدُ تفاصيل لقاءنا الأخير، وأفكرُ في لون المستقبل بدونها، والذي كنتُ أراه وقتذاك أسوداً..

****

وهاأنذا الآن أنتظرها؛ أنْتَظِرُ سماع حرف من صوتها، أَنْتَظِرُ ضحكاتها بالرواق، أَنْتَظِرُ طرقاتها على بابي، أنتظر الوفاء لعهودها!.

بالأمس؛ اِقْتَرَبْتُ من باب شقتهم بآخر الرواق المقابل لشقتنا؛ تَفَحَّصْتُ القفل الخارجي وجدته قد تآكل من الصدأ، كما تآكل قلبي من الفراق..

****

- لابد لي أن أستفيق!.

أتمتم بها ثم أَقِفُ، أهرول صوب غرفة نوم أمي، أطرق بابها، أسمع صوتها تقول:

- ما خطبِك يا جمال؟ وما الذي أوقظك مبكراً؟

- سأنزلُ إلى الطريق، هل تريدين شيء؟.

- أتنزل في هذا المناخ الجليدي القاسي يابني؟.

أصمتُ لحظة، أبتسم، أقول:

- لقد أَلَفْتُ الجليد يا أماه!.

مقابلة مع الموت

تَقَابَلْتُ مع الموت غير مرة؛ بعد كل مرة كنت أُولَدُ مِنْ جديد، فتأتي المرة التالية كي ألقى حدفي مِنْ جديد؛ أما الآن فأنَا أُجَهِزُ لموتتي الأخيرة التى لا بعث بعدها إلا يوم الدين... رحماك ربي!.

كيَّفَ كان مذاق الموت في المرات الماضية؟ ماذا كان شعوري وقتها؟ أحاول أن أَتَذَكَرُ، أحاول أن أَسْتَجْمِعُ تلابيب ذاكرتي، أحاول أن أُفَتِشُ بين براثن الدهر عن رفاة ذكرياتي... رحماك ربي!.

الخوفُ مِنْ الموت؛ هذا ما لا أَشْعُرُ به الآن، فلم يعد بالحياة ما يجعلني شَغِفْاً لمواطأتها، ما عُدْتُ أرغب بها، أَتَأَفَّفُ مِنْ فكرة أن أَنْتَظِرُ الموت ليطرق بابي، بيد أنه باستطاعتي الذهاب إليه، والحقيقة أني مُتَحَمِسٌ لتلكم الفكرة؛ أن أرتمي بنفسي بين أحضانه، وكأنه صديقاً حميماً! ولِمَ كأنه؟ الموت بالفعل صديقاً حميماً زارني غير مرة؛ كانت زيارته الأولى والدي رحمة الله عليه..

****

كان أبي بالعقد الرابع مِنْ العمر أنذاك؛ وفي الصباح، أَشْرَقَتْ الشمس على مَضَضٍ؛ وقد كان يوماً بارداً باهتُ الألوان؛ زَحَفتْ فيه الآليات صوب بلدتنا، مدعومة بالدبابات والمدرعات، وبجنود الإحتلال، وبدأوا إِجْلَاءَنا بمكبرات الصوت. اِسْتَيّقَظَ أبي مبكراً ذاك اليوم وكأنه على موعد مع حبيب يَشْتَاقُ إليه. خَرَجْتُ أنَا وأطفال الحي؛ نَصْرُخ ونَرْشُقُ الجنود بالحجارة، يردون علينا بالرصاص؛ فَيَسْقُطُ بعضنا.

كنت بالعاشرة مِنْ عمري آنذاك ورشقتهم بالأحجار، وبكيت ولعنتهم. وفجأة؛ دَلَفَ أبي تجاه الجنود والمدرعات، فصوبوا مدافعهم إليه؛ اِقْتَرَبَ منهم أكثر، أطلقوا رصاصهم على قدميه، ولكنه اِنْتَصَبَ سامقا قبالة البيت أمامهم ودماؤه تَنْزِفُ، قال بصوت جهور:

- لن تهدموه إلا فوق جثتي يا مخنثين؟!.

رَكَضَ صوبهم، وسمعنا دَوِيُّ انفجار، وتَنَاثَرَتْ أشلاء الجنود ممتزجةً بأشلاء أبي مِنْ حولنا، اِشْتَعَلَتْ النار بمدرعاتهم، وَقَفْتُ بعيداً فاغرا فمي، وتوقف قلبي عن

الخفقان، ولم أر سوى سواداً في سواد؛ لقد كان أبي على موعدٍ مع الموت... رحماك ربي!.

****

اِستَيْقَظْتُ صارخاً:

- أبي ... أين أبي؟.

سَمِعْتُ أمي تقول:

- أبوك بالجنة... لا تنزعج يا ولدي؟.

مرت السنون؛ وأَكْمَلْتُ حياتي متنقلاً بين المخيمات؛ وكانتا معي أمي وأختي الصغيرة. ولما وَصَلْتُ لسن الرابعة عشرة؛ خَرَجْتُ لأتدرب مع المجاهدين على حمل السلاح. تَزَوَّجَتْ أختي مِنْ أحد المجاهدين، وأمي أصابها مرض السل، ولم تتحمَّل الحياة بالمُخيمات؛ لم تتحمَّل البرد القارس، لم تتحمَّل الجوع القارس، لم تتحمَّل الحياة بلا أبي، عاشت مثل جثة لم تستمتع بالحياة أبداً؛ وهل في حياتنا شيء مُمتع؟ انتقلت للرفيق الأعلى؛ وزادت من الصدع الذي تركه موت أبي بقلبي، زادت من عذاباتي،

وقابلتُ الموت من جديد؛ الأولى كان أبي، والثانية أمي، والثالثة... حتماً أنَا... رحماك ربي..

****

تَقَدَّمْتُ بالتدريبات بطريقة مبهرة.

- أَحْسَنْتَ؟ بهذا تكن قد اِقْتَرَبْتَ مِنْ تحقيق حلمك!.

قالها لي قائدي، حينما رآني أبلي بَلاءً حسناً بتمارين الرماية، والاشتباك. كان حلمي أن اَنْتَقِمْ لأبي مِنْ جنود الإحتلال، ولكني أريد أن أَقْتُلُ كتائباً منهم، ولن يُشْفِ غليلي جندي أو اثنين، لكن الحقيقة سلاحي لن يُنْجِعُني في تحقيقه. قَرَرَ قادتي أمراً وأَطْلَعُوني عَليهِ؛ عمليةٌ استشهاديةٌ! وأنَا مَنْ سينفذها، وَافَقْتُ بعد تفكير قليل.

سَأُقَابِلُ الموت بنفسي، وسأرتمي بين أحضانه، سَأُنْشُرُ الذُعر والرعب في قلوب الصهاينة، ومرحباً بالموت لكن يموتون معي ويحترقون بناري..

****

أما الآن؛ فأنَا في دَارٍ صَغيرٍ بأطراف "غزة".

- هيا لتستعد؟.

يأتني صوت قائدي يدعوني للتهيؤ. أقول:

- أريد أن أَقُومُ بزيارة لأختي؟.

- لك هذا ... ولكن احترس؟.

- إن شاء الله لن أموت إلا ومعي العشرات مِنْ جنودهم المخنثين، لا تقلق؟.

أنَا الآن بصحبة رهط مِنْ المجاهدين جالسين نتدارس الخطة. وفجأة؛ أَفِذُّ عنهم، أَلْبِسُ جلبابي، أَلْتَحِفُ الشال، وأَهُمُّ بالخروج مِنْ الدار. وفجأة؛ نَسْمَعُ أزيز طائرات الكيان الصهيوني تَشُقُّ السماء...

- غارة على غزة!.

يَصْرُخُ فينا القائد؛ فَيَتَجَمَّعُ المجاهدون سريعاً، ويَصْدُرُ أمره؛ يقول:

- اِنْزِلْوا إلى النفق سريعاً واِنْزِلْوا معكم الأسلحة والزخيرة؟.

وراح يَكْشِفُ عن غطاء لنفق أسفل الدار.

أصيحُ بغضب:

- كنت أنوي زيارة أختي، ثم أعود لأقتل منهم العشرات، لماذا يستبقون القدر... لماذا؟.

ويَبْدَأُ المجاهدون بانزال الزخيرة والأسلحة إلى النفق الآمن، وأنَا مُنْتَصِبٌ لا أَتَتَعْتَعُ قيد أنملة... يَصِيحُ بي القائد:

- اِنْزِلْ؟.

أَتَمَلْمَلُ ولا أُجِيبُ. يقول:

- اِنْزِلْ... لابد مِنْ المحافظة على سلامتك فلن نُفْشِل حلمك أبدا؟.

يبدأ دَّوِيُّ القنابل والصواريخ يُهَتِّكُ الآذان تَهْتِيكاً، وتبدأ المنازل بالانهيار جراء القصف. صرخات الأطفال والنساءتَتَحَشْرَجُ بين الأزقة والطرقات المسدودة بأكوام الأنقاض!. الكل يَصْرُخُ، الكل يَبْتَهِلُ، الكل يَبْحَثُ عن ملاذ آمن. أَنْظُرُ مِنْ النافذةٍ، أَتَأَمَّلَهُمُ صامتاً!.

-اِيهِ... ماذا قَرَرْت؟.

يسألني القائد؛ بماذا أُجِيبُه؟ أَأَدْفِنُ نفسي بالنفق والنساء والأطفال تَعُجُ بهم الطرقات تحت ضجيج القصف؟ أم أَنْسَ قتل العشرات الآن وأَخْرُجُ إليهم؟!.

فجأة؛ يُسْقَطُ صاروخاً فوق دار ملاصقة لدارنا؛ فتهتز الأرض مِنْ تحت قدماي؛ الآن أُقَرِرُ!.

- سَأُرجّيِ الحلم القديم، وسَأَخْرُجُ لِأُدافِعُ عن حلمي الحاضر!.

أقولها ثم أرتدي بذلتي العسكرية الخضراء، والقناع والحذاء الأسودين؛ بعد أن أخلع الجلباب، وأُخْرِجُ بندقيتي الكلاشنكوف مِنْ الصندوق الخشبي المسجى بين أيديهم قبل نزوله إلى النفق، وأتناول حقيبة مملوءة بخزنات الرصاص، وينزلوا هم إلى النفق ويسقطون غطاءه فوقهم.

وأَنْطَلِقُ أنا خارجاً مِنْ البيت بسرعة صوب صراخ النساء والأطفال لآخذهم إلى ملجأ آمن مِنْ الغارات. وريثما أَبْتَعِدُ عن الدار؛ إلا ويتم قصفه بصاروخ مِنْ طائرةٍ صهيونيةٍ!.

عندها أُقْذَفُ بعيداً من شدة الانفجار، وأَسْقُطُ أرضاً، وبجانبي الكلاشنكوف والحقيبة، أَنْهَضُ من هول المفاجأة؛ أَسْتَدِرُ وأَنْظُرُ إلى البيت فأجده قد صار كومة أنقاض! أُتَمْتِمُ:

- الحمد لله!.

أَتَقَلَّدُ بالكلاشنكوف وحقيبة الزخيرة؛ أَرْكُضُ صوب الأطفال والنساء والشيوخ؛ وأُرْشِدَهُم إلى المخابئ الآمنة تحت الأرض، ويَنْضَمُّ إلي مسلحين أكثر ونعمل على إرشاد الناس إلى المخابئ. وفجأة؛ تَصْرُخُ امرأة مِنْ داخل المخبأ:

- أين طفلي!؟.

أَنْزِلُ إليها، أتأمل قسمات مِنْ حولها، تَزِيدُني الدموع والرجفات اصراراً، أسألها:

- ماخَطْبُكِ يا أمي؟. تقول مُرتجفةً:

- إبني فَقَدْتُه بالطريق ونحن قادمون!.

- لا تَخَافِ سأحضره إن شاء الله؟.

يَنْظُرُ إلي شاب مِنْ المسلحين، يقول:

- بعض القوات الصهيونية تَقْتَحِمُ غزة برياً للبحث عن جهاديين... خُذْ حذرك؟.

أقول له مِنْ خلف قناعي الأسود:

- اِطْمَئِن ... ليس هنالك عقاب أقسى مِنْ الموت يستطيعون فعله بنا!.

وأَنْطَلِقُ إلى الطريق الذي وصفته لي المرأة؛ اَبْتَعِدُ مستكشفاً؛ أَسْمَعُ حسيس النار، وأرى الأدخنة المتصاعدة، ومِنْ فوقي الأزيز يَغِيضُ ويعلو، وفجأة؛ أَسْمَعُ صراخ طفل، أَرْكُضُ صوب الصوت؛ أَجِدُه يبكي خلف أكوام الهديد، يُغَمْغِمُ:

- أينَ أَنْتِ يا أمي؟.

أَنْزِلُ على ركبتي أمامه، معلقاً بندقيتي فوق كتفي وأَحْتَضِنُه بشدة، وأُرَبِّتُ على ظهره، أقول:

- أمك بخير.

وأَهُمُّ أن آخذه مِنْ يده وأعود ولكني أَسْمَعُ صَلْصَلَةُ آلياتهم، وصيحات جنودهم، فَأتَيقْنُ بأنهم قادمون!. أَصِفُ للطفل طريق المخبأ؛ يُومِئُ بأنه يعرفه، أقول له قبل أن يذهب:

- ما هو حُلْمُكَ يا صغير؟.

يقول حانقاً:

- حُلْمِي أن أَقْتُلُ منهم العشرات.

مُشيراً بيده إلى المُقاتلات بالسماء، أَبْتَسِمُ، أقول:

- إذاً اِذْهَبْ لأمك؛ لتعتني بك كي تُحَقِّق حُلْمُك؟.

يَنْطَلِقُ راكضاً، ويَغِيبُ بين أكوام الهديد والمنازل.

تَظْهَرُ أمامي جليةً آلياتهم العسكرية؛ أَنْظُرُ خلفي إلى الطريق الذي مَرَقَ منه الطفل وأَجِدّهُ قد اِخْتَفَى؛ أَصْرُخُ:

- مرحباً بكم في أرض الأحلام!.

وَأَسْمَحُ لنيران الكلاشنكوف أن تَنْطَلِقُ صوب خنازير الصهاينة لتجلدهم بسياطها..

عبد الشيطان

- خُيِّرْتُ بين جنتين؛ جنة الدنيا وجنة الأخرة، فاخترتُ الأولى بمحض إرادتي، عشتُ أكثر من عشرين سنة في الوحل، عشتُ عمراً من اللذة في خِضَمِّ الخطيئة، اتخذتُ الشيطان ولياً، بل معلماً، بل كان إله، وكنت عبداً له؛ أرتلُ له الصلوات بين نهود الغواني، كنت أركعُ له فقط بين أفخاذ البغايا، كنت أتطهرُ له بالخمر. كان الكذب منهاجي، كانت النذالة صديقتي، سَفَكْتُ دماء أبرياء كثر، كنت أشعرُ بنشوة وأنا أحرِمهم من الحياة بسادية، كنت أستمتعُ بآلامهم وبغرغراتهم ... شعور ليس له مثيل؛ حينما تشاهدُ إنساناً يودع الحياة رغماً عنه وأظافره منغرسة بوجهك تتسول منك مهلة أخيرة، ونظراته العاجزة تتوسل منك الرحمة، ورغم ذلك ؛ لم ترتجف لي فريصة.

لم أتزوج، لم أعرف للاستقرار طريق، كان عدوي الوحيد الأوحد هو الحب؛ فمعلوم لي أن الحب مرض يُضعف القلوب!... أعرف أنك مشمئز متقزز متأفف، بل أعرف أنك ترتعدُ خوفاً مني، وأعرفُ أنك تخيلت مصيري بالآخرة، وربما اقشعَّر بدنك من هول مصيري، أرى العرق المتصبب

من جبينك، ألاحظ جفاف حلقك، وهروب رضابك، ولكن دعني أحكي لك عن إحدى خطياتي؟..

في غرفة واسعة ليس بها أساس، ذات سقف مرتفع، يخترق ضوء النهار نوافذها ذات القضبان الحديدية ليسقط أرضاً مُنكسراً تارة، ومستقيماً تارة أخرى؛ أطرق المتحدث رأسه وصمتَ لحظات، كان رجلاً بالعقد الرابع من العمر؛ مشعث الشعر واللحية، عيناه حمراوتان حادتان، وجهه شاحب وبه آثار سحجات قديمة، يرتدي البذلة الحمراء، مكبلة يديه خلف ظهره، يجلسُ على كرسي خشبي، وأمامه منضدة خشبية مستديرة، ويجلس قبالته من الجهة الأخرى، رجل دين بعمامة بيضاء، مكفهر الوجه، ذا لحية بيضاء قصيرة، يرتدي جبة رمادية، وأسفلها قفطان أبيض، قال:

- احك باختصار ولا تُمَطْمِطَ في الكلام ولا تضيع الوقت، حتى ينَفَذ فيك حكم الإعدام؟..

- حسناً سأختصر، ولكن لي رجاء أود منكم تحقيقه واعتبروه ضمن أمنيتي الأخيرة؛ أريد أن أدخن السجائر أثناء حديثي!.

قالها المجرم غير مبالٍ، حينئذ؛ وقف الشيخ، تحرك داخل الغرفة الشاسعة ذات الجدران الأسمنتية؛ اقترب من باب حديدي يقفُ أمامه من الداخل مجندين في بذلاتهم الشرطية البيضاء، مدججين بالسلاح، قال:

- إن كان بينكم مدخن فاعطوني سجائر ..؟

أخرج مجند علبة سجائره، ومدها للشيخ، فأخذها وأخرج من جيبه بعض الجنيهات ودسَّها في جيب المجند، وهمس له:

- ابتع بها سجائر لك فيما بعد ..؟

عاد الشيخ؛ وضع السجائر أمام المجرم، قال المجرم مبتسماً:

- أريد قداحة وأريد فك قيودي وإلا كيَّفَ سأدخن؟!.

قام الشيخ ثانية، أخذ من المجند قداحته، فتح الباب وذهب إلى الضابط، واستأذنه فيما أراده المجرم؛ صاحبه الضابط إلى الغرفة متبختراً في بدلته البيضاء، ومسدسه معلق بحزامه، قائلاً:

- ياشيخ إنه مجرم خطير، وأخشى أن يقوم بأي حماقة معك !.

- لا تقلق تلك أمنيته فلنحققها له، ولنكن رحيمين به في آخر لحظات حياته، وعلني أقنعه بالتوبة قبل موته؟.

وبعد أن فُكَتْ قيوده، وأشعل سيجارته، زفر بارتياح، ثم قال شارداً:

- كان أبي إمام مسجد، تخيل يا شيخ، وأنا كما ترى، وكما يقال "يخلق من ظهر العالم فاسد" كنت أنا الفاسد في نظرهم، كان أبي يترجاني لأذهب إلى المسجد، وكنت أأبى بشدة، وأذهب لألعب مع أقرنائي، كنا نسرق الحوانيت ونهرب، كنا ندخن السجائر التي نسرقها، وكنا نعرقل المارة بفتات زجاج نضعه بالطرقات، وكنا نبذر المسامير في طريق السيارات؛ حتى أقرنائي لم يسلموا من حماقاتي؛ فقد فقأت عين أحدهم بشاظية زجاج لاختلافنا في اللعب، وقطعتُ كف آخر بساطور لمحاولته التحرش بي ومُضاجعتي آنذاك؛ كانوا يظنوني ضعيفاً مُخنثاً، ولكني أثبتُ لهم أني رجل وعلَمْتُ عليهم جميعاً.

أمي كانت تقول "أن الشيطان تلبسني" يقولون أنني مسكون، فهل أنا مسكون يا شيخ؟ وكيَّفَ لشيطان أن يسكن شيطان مثله؟ قديما كانوا يقولون لنا: "أن الشيطان لا يسكن أجساد مرتادي الخمارات، لكنه يسكن أجساد قليلي الإيمان" ولم أكن مؤمناً قط يا شيخ فكيَّفَ يسكنني الشيطان؟ ذات مرة أخذني أبي إلى المسجد عنوة، وقبيل الباب شعرتُ بأن قوة عظيمة تصدني، فلم يستطع أبي أن يزحزحني قيد أنملة من موضعي، صرت وكأني شجرة عتيقة ضَرَبَتْ بجذورها في أعماق الأرض، عندها تفلتُّ منه، ومن وقتذاك وأنا شارداً في البلاد، آكل من حرام، وأشرب من حرام، وبالليل أتدثر بأحضان الغواني ..

بَدَتْ سيماء الدهشة والتعجب على قسمات الشيخ، وتململ ليصيخ السمع للمجرم أكثر، نفخ المجرم دخان سيجارته مُبتسماً، ثم قال:

ـ ذات مرة؛ نويت أن أزور والداي، ليس حنيناً لهما بل لأني كنت أمر بضائقة مالية وقتذاك وكنت أنوي سرقتهما أو طلب المال منهما، بعد عشرين عاماً من الغياب ياشيخ، وصلتُ الحي ليلاً وقبل أن أدخل؛ قابلت اثنين من أقرنائي

القُدامى، وفي جنح الظلام؛ قاموا بتثبيتي بمطاويهم، ولكني أوسعتهم ضرباً، وقلت لهما مَنْ أكون، وتذكراني، وتذكرا خياناتي لهما، ولكنهما قالا لي أنهما افتقداني، وجلسنا ندخن الحشيشة معاً على جدار مهدم في خربة مظلمة ـ كانت بيتاً فيما مضى وتهدمت وأحاطتها أكوام القمامة من كل جانب ـ قال لي الأول وكان أعور:

ـ أُشْهِدُ الله أني سامحتك يا صديقي على فقأ عيني، ومرادي أن نعيد المياه لمجاريها، ها ما رأيك؟..

ـ موافق.

وقال لي الثاني وكانت كفه مبتورة:

ـ وأُشْهِدُ الله أيضاً بأني سامحتك على قطعك لكفي، ومرادي أن نعيد المياه إلى مجاريها، ها ما رأيك؟.

ـ موافق.

مر بعض من الوقت؛ تبادلنا فيه أطراف الكلام، قال لي الأعور:

- هناك فتاة بالحي لو رأيتها ياصديقي لسوف تُجَنْ من جمالها..

وأثنى الآخر على جمالها، وبدأ يعدد من صفاتها ومن فراهة جسدها؛ نهديها ردفيها، الحقيقة لم أستطع المقاومة أكثر، وتخيلتني بين نهديها، فقلت لهم :

- أريد هذه الفتاة؟.

ضحكا، قال الأعور:

- حلال عليك ياصديقنا، لتكن أول مَنْ يتمطقها ونحن لسنا بطماعون، سنمصمص العظم الذي تتركه لنا، ولكن حاول أن تترك لنا حتى نسيلتين ..

وضحكنا ثلاثتنا، والتحفتنا سحابة من الدخان، قلت فجأة:

- أين ومتى وكيَّفَ؟.

تساءل ذو الكف المبتور، قال:

- صحيح كيَّفَ يا أعور، العاهرة لا تضاجع إلا أشخاص ميسورين ولا تنظر لمَنْ هم أدنى منها، ولن ترضى بنا نحن المشوهون؟!..

عندها استشطتُ غضباً ياشيخ، وقلت لهم:

- نضاجعها عنوة، ومَنْ يحاول التصدي لنا نضاجعه معها.

ضحكوا جميعاً، قال الأعور:

- إِذَاً فلنتحرك من الآن، فبعد نصف ساعة بالضبط ستمر بالطريق القريب من تلك الخربة، فلنختطفها، ونحصل عليها، هيا استعدوا؟..

انتهت السيجارة، أشعَلَ الأخرى، وبدا الشيخ منتبه وغارق في عرقه، قال المجرم:

- ومرت الفتاة مرتدية عباءتها السوداء الضيقة، وكانت بالفعل فارهة، وسرعان ما تحلقنا حولها، ولما صَرَخَتْ هددناها بمطاوينا، وكتمنا أنفاسها، وحملناها إلى الخربة الظلماء بعيداً عن إنارة الطريق، وضربناها حتى أغمى عليها؛ كان قلبها ضعيف، وخارتْ قواها مبكراً، فسهلت علينا كثيراً، كانت جميلة حقاً، وبدا وجهها مألوفاً لي، ولكني لم أبال، قالا لي:

- نحن على وعدنا؛ أبدأ أَنْتَ يا بطل؟.

وبالفعل بدأتُ باغتصابها فوجدتها بكر، فسألتهم، فقالا لي:

- عملية ترقيع ياصديقي تقوم بها أسبوعياً لتزود الأجر ..

تمتمت:

- أيتها العاهرة بعد الآن لن تجدي معك أيما عمليات!.

وبعدما انتهينا جميعاً؛ ألبسناها ثيابها، وكانت الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل، تركناها وسط الطريق المقفر المؤدي للحي تحت إحدى أعمدة الإنارة فاقدة الوعي مضرجة بدمائها.

عَدَلْتُ عن فكرة زيارة الأهل بعد أن قشطنا أموال العاهرة، وأجلتها واختفينا جميعاً حتى تهدأ الأمور، وبعد مرور عدة شهور، وبعدما ضاقت بي الحال ثانية؛ قصدت الحي، وصلت بيتنا، طرقت الباب، فتحت لي عجوز جعدة؛ كانت أمي، دخلتُ وسط ذهولها وصمتها، وجلست على الكنبة بالصالة، أشعلتُ سيجارة دونما انفراج لشفتاي عن كلمة، قالت أمي:

- أأَنْتَ ابني؟..

ضحكتُ، صَرَخَتْ على أبي، اِقْتَرَبَتْ مني، نَزَلَتْ على ركبتيها، وبدأت تتحسسني وتبكي، وخرج أبي من غرفته، قالت:

- ابنك عاد!..

انتفخت أوداج أبي، وصرخ:

- ليس لي أبناء شياطين، ابني مات منذ عشرين سنة !.

وقفتُ وهممتُ بالخروج، قصدتُ الباب، أعطيتهم ظهري، سمعتُ أمي تقول بصوت متهدج:

- إنه أخاك يا حبيبتي؛ متغيب منذ عشرين عام - ثم وجهت كلامها لي - سلم على أختك التي ولدت بعد رحيلك يا بني وبعدها غادر؟..

واستدرتُ ياشيخ لأنظر لأختي، فإذا بها تلك الفتاة التي اغتصبتها أنا والمشوهان! ذُهِلْتُ؛ شعرتُ بأن روحي انفصلت عن جسدي، ثم عادت لجسدي مُبتلة بمياه شديدة البرودة وملبدة بالشوك، أما أختي فشعرتُ بصدمتها، وبخيبتها، وبألمها وقهرها، وصَرَخَتْ بأعلى صوتها مُرددة:

- إنه الذئب الذي اغتصبني! ليس أخي... ليس أخي! اقتله يا أبي؟ اقتل هذا النجس... اقتله؟.

عندها ياشيخ شهقت أمي شهقة وكانت الأخيرة؛ ماتت من لحظتها، وهرع أبي تجاهي وجذبني من تلابيبي وبدأ بضربي قائلاً:

- أَنْتَ شيطان لابد أن تموت! الحياة حرام فيك!.

وبدأ بخنقي، فأخرجتُ مطواة وطعنته عدة طعنات حتى مات، تمتمتُ:

- لا يموت الإنسان مرتين، أما قلت أني ميت آنفاً؟!.

سقطت أختي ترتجف وتهذي، اقتربتُ منها؛ عجزتُ للحظات؛ توقف عقلي؛ ماذا ينبغي أن أفعل؟ تساءلتُ، وفكرت في أن أُريحها وأُريح نفسي من العذاب والعار، لحظات وعادت لي قواي وإرادتي؛ ذبحتها، ثم ودعت جثثهم بنظرة خاوية من أي إحساس، نظرة بليدة، ثم هربتُ ثانية ..

****

وقف الشيخ مفزوعاً يتأمله بتقزز، أشعل المجرم سيجارة ثالثة، قال:

- أما القضية التي حُكم بإعدامي فيها؛ فهي ذبح الأعور وذو الكف المبتورة وسط الشارع وأمام الناس بعد أن عثرت عليهما بصعوبة جزاء مكيدتهم.

قال الشيخ حانقاً:

- أَنْتَ شيطان بالفعل؛ صدق أباك!..

عبس وجه المجرم، وقال بصوت متهدج:

- أليست هناك ثمة توبة... لي ياشيخ؟.

همَّ الشيخ بمغادرته صوب الباب، قائلاً:

- هيهات يا عبد الشيطان.

وما إن استدار الشيخ وأعطاه ظهره؛ حتى اِنْقَضّ عليه المجرم ومسك برأسه بين راحتيه وأداره يمنة وأعاده يسرة في حركة خاطفة صدرت عنها فرقعة، فسقط الشيخ لتوه جثة هامدة، وانتصب المجرم مقطباً، وبعينين حادتين تشعان غضب؛ ينظر إلى المجندان اللذان يقتربان منه مشهران

سلاحهما صوبه، ثم ينظر إلى جثة الشيخ المسجاة أرضاً، متمتماً:

- أستغفر الله العظيم!.

الغراب المسحور

لم أكن أصدق في السحر والشعوذة يوماً ما، لكن بعد ما حدث معي، تساءلتُ كثيراً، هل هذه المرأة ساحرة بالفعل؟ أم أن هناك لغز مُطلسم لابد من حله؟ لابد أن هناك لغز؛ هذا شيء غير طبيعي بالمرة؛ لا يوجد تفسير علمي لمثل هذه الحادثة أبداً!..

***

بدأت الحادثة حينما كنت أسكن في غرفة فوق سطح أحدى العمارات بأطراف القاهرة، ولمَّا تغيَّرت مواعيد عملي بمصنع الملابس الذي كنت أعمل به؛ أصبحتُ أستيقظُ في الساعة السادسة صباحاً، بعدما كنت أستيقظ في السابعة؛ وأصنع لنفسي كوباً من الشاي، وأُسخِن رغيفين من الخبز، وأُخرجُ من الثلاجة الصغيرة، قطعة جبن على طبق، وأخرجُ لآكل الجُبن، وأحتسي الشاي، خارج الغرفة فوق السطح..

أول صباح يحدث فيه ماحدث، كان صباحاً هادىء، والشمس على وشك أن تُشرق من خلف الأبراج الخرسانية العالية البعيدة؛ جلستُ على الكرسي البلاستيكي، أمام المنضدة الخشبية - حيث وضعتُ طعامي - أتمطق الجبن

وأُبلِّع بالشاي، وفي وجهتي عمارة ترتفع عن السطح - حيث أجلس - بثلاثة طوابق، كانت بيضاء اللون، وبواجهتها شرفات واسعة بدرابزونات حديدية، وكانت قِبلة واجهتها عن يميني مثل واجهة العمارة حيث أسكن..

كنتُ مُنهمكاً في إفطاري، وفجأة دوى صوت ارتطام شيء ربما كان حجراً بنافذة أو باب بالأعلى؛ رفعتُ بصري مفزوعاً، جُلت بعينيّ باحثاً عن مصدر الصوت، وتساءلتُ في نفسي: كيف لأي شخص أن يقذف حجراً ويصل إلى مسافة مابعد الطابق السابع؟!.

حطَّتْ نظراتي فوق غراب، كان واقفاً ينعق فوق درابزين شرفة إحدى شقق الطابق الثامن بالعمارة أمامي، وفجأة؛ حلَّق بعيداً، ثم عاد ثانية شاقاً الريح بسرعة شديدة، وارتطم بمنقاره وبجسمه ومخالبه بباب الشرفة! وقفتُ أشاهده مشدوهاً، وتمتمتُ:

- ماذا يفعل هذا المجنون؟!.

وظل يكرر فعلته حتى فُتح الباب، وخرجت امرأة بدا أنها في الأربعين من عُمرها، ترتدي ملابس نومها القصيرة، وشعرها منكوش، أشاحت له بيدها، وصاحت:

- اذهب؛ لقد ايقظتني؟!.

ثم دلفتْ المرأة إلى الداخل. وقف الغراب صامتاً فوق الدرابزين، وراح يتلفت حوله كالمجنون، وبعد لحظات حلق بعيداً واختفى خلف البنايات العالية، وقد أشرقت الشمس..

جلستُ حائراً، تدور برأسي شتى التأويلات لِما حدث أمام عينيّ، وتساءلتُ: هل كان يوقظها؟ ولكن كيف؟ ربما كان غراباً مدرب، ولكن هذا غير صحيح؛ لا توجد أغربة مُدربة، ربما مُصادفة لا أكثر!..

وأقسم لو أن أحداً ما - وقتذاك - كان قد حكاه لي وأغلظ الأيمان ما صدقته، ولكنه للأسف حدث أمامي، وليس مرة فحسب، ولكنه كان يحدث كل صباح، وفي نفس التوقيت، وبات جلياً أن الأمر ليس مُصادفة، حتى بات شغلي الشاغل، فك طلاسم هذا الحدث الغريب.

فكرت في زميل يعمل معي بالمصنع، كان يدَّعي أنه يمتلك المقدرة على فك طلاسم أي حوادث غريبة، أو خاصة بالعالم الآخر، وكنت دائماً أُكذِّبه وأتحداه، ولكن لا مفر من استشارته. ربما يستطيع حل اللغز!؛ هكذا فكرت وقتها..

****

وذات يوم؛ في استراحة الغداء، جلست معه؛ كان شاباً نحيل الجسم، غليظ الرأس، ذو عينين واسعتين مخيفتين بعض الشيء. وبعد أن أكلنا، حكيتُ له ماحدث، فوجدتُ عينيه جحظتا واتسعتا بطريقة مُريبة مُقلقة، رغم اتساعهما الطبيعي المُخيف، وصمت قليلاً، ثم غمغم مع نفسه بعض الوقت، وبعد دقيقة؛ انبسطت أساريره، قال لي بلهجة مُلتحفة بثقة وخبرة وتمرس:

- الملعونة... ثم صمت هازاً رأسه يمنة ويسرة، ناظراً في اتجاه آخر، وكأنه كان يخاطب شخصاً آخر يجلس معنا، ولا يظهر!.

- من تقصد؟.

سألته، توقف عن هز رأسه، نظر إليّ، قال بلهجة تشي بالعطف:

- خائف عليك يازميل من تلك المرأة، لربما تُسحِرك مثلما سحرت الغراب، لتذهب كل صباح وتضغط الجرس لتوقظها، أو تجعلك تُحضر لها الخُضر والفاكهة من السوق!.

- هل لك أن توضح أكثر؟!.

- تلك المرأة ساحرة يا زميل، والغراب مسحور بتعويذة طاعة ألقتها عليه، ليوقظها كل صباح!.

ضحكتُ وقلت له:

- ولم أرهقت نفسها، وألقتْ تعويذاتها على غراب مسكين، وهي باستطاعتها أن تضبط منبه الهاتف، أو تشتري مُنبه؟!.

- عزيزي؛ هذه الأمور لا ينبغي أن تُعمل عقلك فيها، وإن كنت تحسب نفسك عاقلاً فلم أتيت طالباً مساعدتي؟ لماذا لم تُرغم عقلك على إيجاد تفسير يا ذكي؟!.

طأطأتُ رأسي خجلاً، ثم قلت مستسلماً:

ـ أعرف أن هُناك أمور عصيَّة عن العقل ومُستعصيَّة عن الفهم، مثل ذلك الحدث الغريب، لذا جئتك لعلي أجد ضالتي... والحقيقة فقد بدأتُ أصدقُ ماتقوله!.

ابتسم بانتصار؛ نظر حوله وكأنه يخشى أن يسمعه أحد من الزملاء المُنتشرين من حولنا يتناولون طعامهم فوق الموائد، ثم قرَّب رأسه مني قائلاً:

ـ أتعرف؛ ربما كان هذا الغراب جني مُتجسد في هيئة غراب، وهو عاشق وله لها، ولكنها تُعذبه، أو تختبره، وقريباً سترضى عنه، ولكني لستُ متأكداً من هذه النقطة بعد؛ إذ لابد لي أن أعاين مسرح الأحداث بنفسي، وأشاهد الغراب بأم عيني.

ـ ماذا تقصد؟.

ـ أبات عندك الليلة؟.

****

ليتني لم أُخبره، ليتني ماطلبتُ مساعدته؛ لم أنم طوال الليل من الرعب والقلق؛ إذ كان دائم الغمغمة مع نفسه، وفي وهيد الليل أجده يُخاطب كائنات لا تظهر، ويضحكونه تارة،

ويتشاجرون معه تارة، ويصمت تارة، ويصرخ تارة، حتى كدتُ أن أُجن..

شعرتُ بأن الغرفة سُكنت بأشخاص من العالم الآخر. ليلتئذ؛ تركته ينم على السرير، واستلقيت على السجادة أرضاً، حتى كلَّت مني الضلوع، وتشبعت مفاصلي من ثلاجة البلاط، وكلما أُغمضت عيناي شعرتُ بأقدام كأقدام القطط تطأني بسرعة غريبة، فكنتُ أستيقظُ مفزوعاً، ولا أجد شيئاً! وكل ذلك من أجل فك الطلسم، وحل اللغز..

منذ الساعة الخامسة صباحاً؛ جلسنا فوق الكنبة بجوار بعضنا البعض، خارج الغرفة، وفي وجهتنا الشقة إياها؛ صامتين، مشدوهين، منتظرين قدوم الغراب المسحور، أو ربما الجني العاشق المتجسد..

وفجأة؛ وصل الغراب، وحط فوق الدرابزين، ولم يهجم على الباب كالعادة، إنما ظل يحدج الباب في صمت، ثم ينظر إلينا في صمت أيضاً وكأنه تفاجأ بنا..

وقف صديقي واقترب من سور السطح ليتأمل المشهد عن قرب، وكان تارة يزر عينيه، وتارة يوسعهما، وتارة يُغمغم مع نفسه. نعق الغراب عدة نعقات ثم حلَّق بعيداً..

- لقد خاف مني ذلك الجني العاشق المُتجسد في هيئة غراب!.

أخيراً؛ نطق بها زميلي بعد طول تأمل وانتظار، مُقرراً كنه ذلك الغراب. دلفتُ صوبه، وقفنا بجوار بعضنا البعض، وكنت أرتجف مما حدث.

لقد خاف منه الجني! لا أُصدق أني رأيتُ جنيَّاً مُتجسداً، كنت أشعر وقتذاك بأني سأتبول على ثيابي رُعباً، ولكني تماسكتُ أمام زميلي حتى لا يفضحني بين زملائي بالعمل..

سمعنا صرير باب الشرفة، نظرنا سوياً، خرج زوج المرأة بمنامته البيضاء يتمطى، بدا رجلاً في العقد الرابع من عمره، ممتلىء الجسم، قصير القامة؛ نظر في كل الاتجاهات ثم ضحك، وهمّ أن يدخل لولا أن رآنا واقفين نراقبه. تلك هي اللحظة الحاسمة للتبول على الثياب من

شدة الإحراج. قلتُ في نفسي، ولكنه ضحك في وجهينا، ثم صاح:

- هل رأيتم ذلك الغراب المُتخلف؟ مؤكد هو الذي أيقظكم مبكراً، مُزعج أنا أعرف، كذلك هو لنا، غراب غبي؛ بل أغبى غراب رأيته في حياتي؛ بيد أنني لم أقابل أغربة كثيرة في حياتي - كانت يديه تتنافس مع لسانه للتوضيح والوصف - كل يوم يا شباب يأتي في نفس التوقيت صباحاً ليُهاجم انعكاس صورته على زجاج باب الشرفة العاكس كالمرآة، حتى نستيقظ على ضجته، فنفتح الباب فيرحل - ثم ضحك لمدة دقيقة - أما اليوم فقد بدلنا الأمس بالزجاج باباً خشبياً، لذلك لا أظن أنه سيزعجكم أو يُزعجنا مرة ثانية لأنه سيُحرم من رؤية إنعكاس صورته للأبد... صباحكم سعيد..

ثم عاد لضحكه، ودخل الشقة!.

الحقيقة لم أتمالك نفسي وقتذاك، ونتيجة لحنقي، وغيظي، وانفعالي، تهورتُ على الزميل المُشعوذ، وكانت النتيجة أنه

حصل على أجازة مرضية لمدة شهر، ليحاول مُعالجة بعض ما أُصيب به من كسور وجروح ورضوض وكدمات!..

****

كل هذا ليس غريباً، إنما الغريب ما بات يحدث معي منذ ثلاثة أيام فقط؛ كل يوم الساعة السابعة مساءً، أجدني ذاهب إلى سوق الخضروات والفاكهة، وأشترى أوزاناً مُعيَّنة، وأعرج على البقال، وأشتري كميات مُعيّنة من المواد الغذائية أيضاً، ثم أجدني متوجه كالمنوّم إلى العمارة إياها، وأستقل المصعد الكهربائي إلى الشقة إياها بالطابق الثامن، وأضغط الجرس، فتخرج لي المرأة إياها، وتأخذ مني الأشياء، وتبتسم في وجهي، وتعطيني ثمنها، ثم أجد نفسي مُستديراً قاصداً غرفتي إياها في صمت وبله غريبين!
وأسمعها تتمتم من خلفي ضاحكة:

- أتعبتك معي؟!.

وأراني أستدير وأغمز لها بعيني، ويكأننا أصدقاء قدامى، وأشعر بوجهي مُلتهباً، ومتصلباً على ابتسامة واسعة، وأتمتم مُغادراً:

- تعبكِ راحة يا ست الكل!

المسخوطة

يتراقص نور **ذُبالة القنديل الواهن بالمشكاة، فتنتشر بالغرفة هالة نور أصفر، ذات مدى قصير، سرعان ماتختلط بأطرافها العتمة، لتنتهي بظلام حالك مُلتصق بالجدران وأركانها..**

كذلك كانت تتراقص ضربات قلبي، وتتماوج بالغرفة ذات الجدران الطينية المُملّطة بالطَّفْل الأصفر، وسقفها الواطيء، وحِزَم بوصه التي اِسودَّتْ من قِدَمِها، وتَدلَّتْ بعض عيدانها التي دثرتها خيوط العنكبوت، وأنا واقفاً بانتظارها، أن تخرج من دهاليز دارها العتيق..

كنتُ قد طرقتُ الباب الخشبي القصير، المُتباعدة ألواحه التي نخرها السوس، عن بعضها البعض، وشعرتُ لوهلة أنه سيخر أمامي كومة من الخشب، رغم أني كنت طفلاً بالسابعة من عمري آنذاك، وليست بكفي عافية لإردائه أرضاً، ولكنه كان يهتز جراء طرقاتي، ويتخلخل..

وقتئذ؛ سمعتُ صوتها آتٍ من الداخل مكتوماً، وكأنه مُنبعثاً من جُحر مُتغلغل في أعماق الأرض، مثل جحور الأرانب: «تعال؟» لا ادري لماذا انقبض قلبي، واقشعرّ جلدي،

وتناوبتْ على مُخيلتي صورة "اللبؤة" وتساءلتُ «تُرى هل تنقلب العجوز الدميمة إلى "اللبؤة" التي تتجول بحقول الأذرة الطويلة ليلاً، وتطلب مِمَّن تجده يسقي زرعه، أن ترضعه بثدييها الذين يكادا يلامسان الأرض، كما يُقال، ولكن الناس تخاف من خلقتها السوداء، وعيناها الواسعتين، والشعر الكثيف على جسمها، ويحاولون الهرب منها، حينئذ؛ تصرخ صرخة مدوِّية مُرعبة، تفج صمت الليل، ويسمعها النائمون على فرشاتهم، تجعل من يحاول الهرب منها، يتيبس رعباً، ولا يتحرك من مكانه قيد أنملة، حتى تصله، وتبدأ في اِلتهامه حتى الموت، ثم تقطِّعه بالساطور، وتضعه بجوال، وتحمله على كتفها وتنصرف إلى دارها الذي لا يعرف مكانه أحد، ثم تطبخه هناك على مَهَل، وإن كان طفلاً تُخرج مُخه وتجففه ثم تسحقه كالدقيق وتصنع منه خُبزاً لها، وتلقي بقية الجسد بالماء الساخن في القِدر الضخم فوق الكانون لينضج وتأكله!.».

بخطى وجلة، دفعت الباب ودخلتُ فلم أجدها، ووجدتُ على يميني مشكاة بها قنديل، وأمامي فتحتين لا يتعديان في ارتفاعهما المتر ونصف، ولا يطُل منهما سوى ألسنة

الظلام، فالعجوز لا تحتاج أطول من ذلك، فقامتها لم تكن قصيرة فحسب، بل كانت مُقوسة الظهر، حيث يبد في أحيان كثيرة كحدبة ناتئة عن جسمها، حتى أنه كان يُخيل إليّ آنذاك أني أبدو أطول منها إذا ما اقتربت مني!.

كنتُ واقفاً أتأمل القنديل تارة، وأنقلُ عيناي من فتحة إلى أُخرى تارة، ومزدرداً ريقي تارة أخرى جراء جموح خيالي وشروده، مُنتظراً خروجها من أحداهما، وبيدي صَّحْفَة صغيرة، ملفوفة بخرقة قماش، كانت أمي قد وضعت بها مغرفتي تقلية، وقطعة لحم، وفطيرة بيضاء، وامرتني أن أذهب بها إلى العجوز، التي تسكن في آخر دار بنهاية الطريق المُعتم، ومن خلفه الحقول الواسعة الموحشة ليلاً..

كانت دارها كبيرة؛ لا تبين لها نهاية في الظلام، وكانت جدرانها قصيرة، من الطوب النيء، وكانت تعيش به وحدها. يقولون بالقرية أنها مسكينة، كانت مُتزوجة قديماً، من رجل مسكين، لا يملك سوى هذا البيت، وكان عقيماً، ورضيا بنصيبهما. وحدث أنه استيقظ الناس ذات صباح على صراخها المُرعب، ولمَّا دخلوا الدار عنوة... «تُرى هل كان ذلك الدخول سبب خلخلة بابها، وتنافر ألواحه؟!»...

وجدوا زوجها ميتاً ميتة غريبة؛ ولمّا سألوها قالت: «لقد افترسته "اللبؤة" حينما كان عائداً من العمل بين الحقول ليلاً؛ سلخت جلده، ونزعت لحمه، وتركته عظاماً تكسوها طبقة رقيقة حمراء من اللحم كما ترون، وأنا أحضرته إلى البيت ليلاً!» كان في شرخ الشباب، وهي أيضاً كانت في ريعان جمالها، وطُغيان أنوثتها، ومن بعده، لم تتزوج أبداً، ولا أدري أكان وفاءً ذلك؟ أم تطيراً للرجال منها!.

ما كان يستغرب له أهل القرية، هو كيفية مواصلة هذه المرأة الحياة، بلا عائل، وبلا مُنفق؟ يحدث أحياناً أن يعطف عليها أهل الإحسان، ولكنها حالات نادرة، فقريتنا لا يوجد بها غير المساكين الكادحين، الذين يُشبهون بعضهم بعضاً!.

- جدتي ؟.

ناديتُ كي أتعجلها، فسمعتُ صوتها يخرج من ذات العمق، ويأتني من الفتحتين معاً، تقول لي:

- اصبر ياولد، أنا قادمة؟!

وضعتُ الصَّحْفَة على الأرض، بجوار جرار المياه، والأجولة الكثيرة المُتناثرة، والتي بدأ أنها ممتلئة بالخبز اليابس، ثم

وقفتُ أتأمل الظلام داخل الفتحتين، وعندما ركزتُ بصري، أبصرتُ عينان مُضيئتان بكل فتحة منهما عين كبيرة، فُتحتا لوهلة في ذات الوقت، وصوبتا نحوي بغضب، ثم أُغلقتا سريعاً!.

جفلتُ إلى الخلف مرتجفاً، مُطلقاً صرخة مكتومة، فتعثرتُ بجوال ثقيل، صدرتْ عنه قضقضة عظام يتكسر، فسقطتُ أرضاً، وتوقف نبض قلبي، وغامت عيناي، وماعدتُ أبصر سوى خطوط متداخلة من النور والظلام، لحظات وسمعتُ بصعوبة، صرير الباب يُفتح، ثم محادثة بين أشخاص تشبه الوشوشة، وتخللها صوت كفحيح الأفاعي، وتحركت خيالات وأطياف من النور والظلام بعيناي.

كنتُ كجثة هامدة، لا أسمع ولا أرى سوى بصيص من الخيالات، وفجأة عدتُ إلى الحياة شاهقاً، وسرعان ما وقفتُ أتلفتُ حولي مذعوراً...

- ما بك يا ولدي؟!.

قاطعتني العجوز، مُعلنة عن وجودها؛ كانت نحيلة الجسم، موشحة بالسواد، وعلى رأسها شاش أسود مُهدَّل الأطراف

من حولها، وشعرها الأبيض يلمع أسفله من ضوء القنديل المُنكسر عليه، وبوجهها خطوط وتجاعيد بعدد سنوات عمرها، التي لا يعلمها أحداً بالقرية أبداً، وتلوح ابتسامة خبيثة على تقاسيمها الخابية، وعيناها تلمعان بوميض مثير للقشعريرة، وتمسك بيدها جوال مُنتفخ، لم يكن موجوداً بالغرفة من قبل..

- ماذا حدث لي؟.

ضحكتْ لمَّا سألتها، فخرجت ضحكتها خشنة كضحكة الرجال، لازمتها رائحة فمها النتنة، ثم قالت:

- لقد نمت ياولدي، عندما تأخرتُ عليك بالداخل!.

ثم اقتربت من الصَّحْفَة، قائلة:

- بلغ سلاماتي لأمك، واشكرها على التقلية واللحم ياحبيبي؟!

ثم تناولتها... ولكن كيف عرفتْ ما بداخله؟ تساءلتُ بها في نفسي حائراً، ثم وجدتها تدلف صوب إحدى الفتحتين، فصِحتُ فيها ببلاهة طفل أخرق:

- أنا لم أنم... أنت كنتِ بالخارج وليس بالداخل... من عِندك بالداخل، وكيف عرفتِ ما بالإناء؟!

عندئذ، وجدتها تستقيم ببطء، وفرقعة عظام ظهرها تعلوا، حتى انتصبت وكأنها ما احدودبت يوماً، واكتست ملامحها جدية، وبدأت عيناها في الجحوظ، وأنياب فمها في البروز منه، ولكني لم أنتظر لحظة أخرى، وسرعان ماكنتُ خارج دارها، أركض صوب دارنا باكياً، مُردداً: «العجوز هي اللبؤة التي تأكل العيال.!»..

ولمَّا حكيتُ لأمي، ضحكت كثيراً، وقالت لي:

- خيالك خصب ياولدي، فعندما تكبر إن شاء الله، ستصبح مؤلف قصص شهير؛ العجوز مسكينة، إنما "اللبؤة" كانت امرأة، فمات أولادها جميعاً فجأة، وكانوا سبعة ذكور، فغضبت ولم ترضَ بقضاء الله، وقتلت زوجها، لذلك(سُخطتْ) مُسِخَتْ لبؤة، تشبه القردة والبشر، وتريد أن تقتل أي طفل أو رجل تراه، إنتقاماً لموت أولادها، إنما هذه المرأة مسكينة، فقدت زوجها، على يد اللبؤة ذاتها، وهي

من حكت لنا عن حقيقة اللبؤة هذه، وكما ترى يا ولدي، فهي تعيش حياة بؤس وحيدة... نم ياحبيبي نم؟!.

ونمتُ من الخوف، وبالصباح، كان فراشي مُبلل بكميات بول كثيرة، ولا أتذكر بوضوح كمية الأحلام المُرعبة، التي راودتني ليلتها!.

كنتُ متأكداً أن أمي لن تصدقني، وكل من حكيتُ لهم ماحدث معي، لم يصدقوني أبداً، والآن تحققت نبوءة أمي وأصبحتُ مؤلف قصص، وهاأنذا أحكي لكم وأعرف أيضاً أنكم لن تصدقوني!..

ومرتْ الأيام، وكبرتُ، وعرفتُ بالمدرسة
أن "اللبؤة" تعني "أنثى الأسد" ولا يوجد بشراً يُمسخون إلى مخلوقات أخرى في هذا الزمان..

وذات يوم، منذ عشرة أعوام؛ انسربت رائحة نتانة من دار العجوز، ضايقت سائر أهل القرية، فدخلوا الدار عنوة، وفوجئوا بجثة العجوز مُتعفنة، وحتى لا يُرهقوا أنفسهم، ويحركوها من مكانها وتتفسخ، دفنوها محلها داخل دارها، ولم يمس أحد من الرجال أي شيء بالدار، وأُغلق الدار

على سرها، وانطوت سيرتها، مع السنين والأيام، وأصبحتْ الدار مهجورةً..

والمُثير للريبة، هو ماحدث منذ ذلك الحين أيضاً، وهو توقف "اللبؤة" عن خطف الأطفال، وقتل الرجال!.

كنتُ مسافراً بعيداً عن القرية، وقت وفاتها، وحمدتُ الله أنها ماتت، فقد كنتُ أخشاها، حتى بعدما كبرتُ، ولكن لا أدري ما الذي حَمَلني على أن أمر على دارها بالأمس، وأتأمله طويلاً، وعبثاً رحت أطرقه مرة تلو المرة، وفي دبر المرة الثالثة، ركضتُ صوب دارنا ألهثُ؛ لقد سمعتُ صوتها، الذي أتاني من قبل مكتوماً، كأنه مُنبعثاً من جُحر مُتغلغل في أعماق الأرض، كجحور الأرانب، قائلةً:

- تعال؟.

ورود الجنة لا تذبل

ما يزل يصدحُ في أذنيّ ذاك الحوار الدافيء الذي دار بيننا في ليلة زواجنا الأولى منذ عمر فات، وكان من أجمل ذكرياتنا معاً، والذي طالما تذكرته حتى أقاوم الوحدة وأحيا في غيابكِ يا حبيبتي!.

كانت ليلة شتاء باردة؛ وكنا ملتحمين تحت الفراش؛ في أحضان بعضنا البعض، كنا جسد واحد، روح واحدة..

- هل ورود الجنة تذبل ؟.

ليلتها سألتني ذلك السؤال، وما كان مني إلا أن أجيبكِ على مضض، قلت:

- لا أعرف !.

ليلتذاك كنت أريد الانتشاء من دفء حضنكِ فحسب ولم أكن أريد الخوض في أي أحاديث جانبية أخرى تحول بيني وبينه؛ فأجبتِ أنْتِ وتعلوكِ ابتسامتكِ الرائقة، قلت:

- ورود الجنة لا تذبل أبداً!.

سألتكِ بتعجب:

- وكيَّفَ عرفتِ ذلك ؟!. فأجبتني بحماستكِ المعهودة، قلت:

- في كل مرة أرتمي بين أحضانك وأُغمض عيني؛ أدخل فيها الجنة، في كل مرة ألمس يديك؛ ألمس فيها ورود الجنة اليانعة التي لا تذبل أبداً في وجود هالة حبك من حولي، في كل مرة أُلثم ثغرك؛ أتجرع فيها من كل أنهار الخمر بالجنة فأسكر في حبك حتى الثمالة، في كل مرة أسمع صوتك؛ أنسطلُ فيها من شدو بلابل الجنة وعنادلها، في كل مرة أكن بالقرب منك فيها؛ أتحول لحورية طليقة بالجنة، وفي كل مرة أكن فيها بحضنك؛ تكن أَنْتَ جنتي!.

وقتذاك؛ ابتسمتُ، وقلت لكِ:

- نحن التوأم الذي أُنجِب من رحمين!.

كم كانت عذبة كلماتكِ لي، فهذا بالضبط ما كنت أشعر به دائماً معكِ!.

فقيدتي الغالية، أعتقدُ أنني الآن على فراش الموت؛ ولا أحد معي سوى رحمة من الله، وروحكِ الطاهرة التي أحادثها الآن..

أتساءل كثيراً: هل سأراك بعد الموت ؟ هل ستتلاقى أرواحنا وتتعانق في حياة ما بعد الموت؟. أريد أن أتحدث إليكِ كثيراً، أريد أن أحك لكِ عما جابهتُ من بعدك!.

اشتقتُ إليكِ كثيراً زوجتي الغالية؛ كم كانت أيامكِ القليلة معي هي الأجمل في حياتي، وبعد رحيلكِ صار ماتبقى من عمري بمذاق الحنظل، صدقيني لا أُبالغ؛ حنظل، علقم، كل ما له مذاق لا يُطاق؛ تلك أيامي من بعدكِ!.

تذكرين؟ كنا صغاراً وقتذاك؛ حينما كنا جيراناً في شارع واحد، وفي بناية واحدة، وشقتنا في آخر الرواق مقابلة لشقتكم. كنتُ أكبرك بثلاثة أعوام، وكان عمركِ وقتذاك خمسة عشر عاماً، وكنتِ أَنْتِ الفتاة الوحيدة لأخوين من الصبية وكنتِ أكبرهم، وكنتُ أنا الولد الوحيد لأختين من البنات وكنتُ أصغرهم؛ كنا مدلليَّن!.

بالرواق، بالسلم؛ كنا نتبادل النظرات، نتبادل الضحكات، نتبادل الغمزات، ونتبادل الكلمات!.

تذكرين لما قابلتك ـ عصراً ـ ذات مرة بالخارج؛ وكنتِ تحملين حقيبتين بهما حويجات المنزل بكلتا يديكِ، وكنتُ أنا قادماً من النادي لانتهائي من لعب الكرة مع أصدقائي هناك.

وجدتك تزفرين تعباً وضيقاً، فحملتُ عنكِ أحمالك، فسعدتِ حينها بوجودي في حياتكِ لأحمل عنكِ همومكِ..

ظلينا نمشي على الطوار بجوار ذاك السور الممتد عبر البصر حتى قاربنا على الوصول إلى بنايتنا. كنتُ أنا طويل القامة، هزيل الجسم، وكنتِ أَنْتِ الجميلة ذات القوام الملفوف، والقامة القصيرة، والعيون السوداء، والبشرة البيضاء، وكنتِ على يميني بجانب السور، وأنا على يساركِ بجانب الطريق، قلتِ لي وقتذاك بلهجة التحفتها الرقة:

ـ أنا سعيدة لأني صادفتك اليوم .

فقلت لكِ بلهجة ساخرة:

ـ الحقيقة هي ليست مصادفة !.

ابتسمتِ وضربتني على كتفي، قلتِ:

ـ يخرُب عقلك؟ أكنت تراقبني لتخاتلنى؟.

فابتسمت لكِ وقلتُ:

- بل قلبي هو مَنْ كان يراقبك وقد قال لي: مرْ من هذا الطريق وستقابل حبيبتك؟ وما كان مني إلا الانصات له، وأتيتُ من هذا الطريق فوجدتكِ حبيبتي، فشكرته؛ فزادت دقاته!.

عندها ارتسَمَت السعادة على تقاسيم وجهكِ الجميل، وشعرتِ ببعض الخجل، وهممتِ برفع يدكِ لتضربينني على كتفي ممازحةً إياي، وبحركة سريعة حملتُ جميع الأشياء في يدي اليسرى؛ ومددتُ يدي اليمنى إلى يدكِ الطويلة التي اعتادت ضرب كتفي بالمزاح، ومسكتُ بها؛ جذبتِ أَنْتِ يدكِ لتعيدينها؛ ولكن هيهات؛ فقد أحكمتُ قبضتي على كفتكِ، وسرعان ما استسلمتْ أناملكِ بين أناملي، وراحا كفانا يعتصران بعضهما البعض في وله، وتنهيدات تخرج من أعماقنا محملة بالحنين، ودقات قلبينا باتت مسموعة للمارة من حولنا!.

رحنا نتمطى الخطى في مشيتنا؛ متشابكي الأيدي؛ نرسل لبعضنا نظرات حب باستحياء من فينة لأخرى، نبتسم

لبعضنا من فينة لأخرى، وكنتُ قد نسيتُ وقتذاك الأحمال الثقيلة بيدي اليسرى؛ نسيتُ أننا بالطريق والناس من حولنا تمر، حتى أفقتُ على صوت أحدهم، يقول:

- الله الله! أهكذا يتناغى العاشقين بالطرقات علنا؟!.

إنه جار لنا، عينه منكِ، ولكنكِ لي أنا فحسب. حاول أن يقترب منا، وحاول أن يمسك يدكِ، مغمغماً:

- كيَّفَ تعشقين هذه الذبابة وأنا لا ؟ أنا أحبكِ، هات يدكِ ؟.

فألقيتُ ما بيدي؛ وصرختُ فيه:

- ابتعِد عنها حالاً؟.

فصرختِ أَنْتِ به، قلتِ:

- أما سمعت ما قاله لك؟.

أزحته بعيداً؛ عاد لي! جذبني من ثيابي، ضربني في وجهي بقبضته عدة ضربات، حينها صحتِ بجانبي:

- أنا أحبك أَنْتَ ولن أحب غيرك؟!.

عندها تشجعت؛ وأعترضت بيدي قبضته قبل أن تصل لوجهي، وأثخنته ضرباً، حتى فر هارباً؛ وجعلني حبك خارقاً؛ بعدما كنت هشيماً تذروه الرياح !.

عدنا بعدها إلى البيت، وقفتُ أمام شقتنا ، و أَنْتِ هناك أمام شقتكم؛ نتبادل نظرات ولهة، لامعة بالشوق.

وفجأة؛ جرينا تجاه بعضنا البعض، وارتميتُ بحضني تبكين؛ وأنا أربِّت على ظهركِ، وأغمضُ عيني، وأشعر بدفء جسدكُ، أشعر بدقات قلبكِ، أشعر بجمر الشوق يلهبني، غمغمتِ أَنْتِ:

- آسفة حبيبي لِما حدث لك!.

لكِ قلتُ:

- أعدكِ بأن عمري كله فداءً لكِ، إن أنتِ خدشتي خدشاً!.

ثم لثمتني على خدي وتفلتِّي فجذبتكِ من يدكِ، فوقفتِ صامتةً تتأمليني وأتأملكِ، ولمعتْ شفتاكِ في عيني، فتأملتهما، فارتعشتا، وقتئذ؛ شعرتُ بأن شفتيكِ تقطر عسلاً، أحسستُ بأن رضابكِ إكسير الحياة، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أمتصُ الإكسير، وأتلذذ بالعسل، وطالت قبلتنا الأولى..

مرت السنون سريعاً؛ تزوجن أخواتي البنات، وبعدها كنا موفقين وتمت خطبتنا، وعشنا أياماً جميلة، ومع اقتراب العُرس، بدأتُ أشعر بقلق ما داخل قلبي، لكني دعوتُ الله أن يتمم زواجنا على خير..

ماتت أمي؛ انتقلت إلى الرفيق الأعلى، هذا ما كان يزعج قلبي الحزين، كان عمري وقتذاك سبعة وعشرين سنة؛ لقد عانيتُ كثيراً حبيبتي، وكنتِ دوماً بجانبي؛ لم تنشغلِ عني أبداً.

وتم تأجيل العُرس لعام نظراً لتلك المصيبة الطارئة، وبقيتُ أنا وأبي الطاعن في السن وحدنا بالشقة، وفقدتُ المرأة الحنون الأولى من حياتي، واسودّت الدنيا في وجهي..

توظفتُ بإحدى الشركات بمرتب ممتاز، قارب العام على الانتهاء؛ لمح لي أخوتكِ بضرورة إقامة العُرس في أقرب وقت وإلا زوجاكِ لرجل غيري!. حددنا ميعاد العُرس، وحدث مالاً يُحمد عقباه؛ توفى أبي؛ انتقل إلى الرفيق الأعلى، وفقدتُ الرجل الحنون الأول من حياتي، وتم تأجيل

العُرس لمدة سنة أخرى، لكن أخوتكِ لم يعجبهم الحال، وكان هذا جلياً على وجوههم..

استيقظتُ ذات صباح؛ رحتُ لأطمئن عليكِ، وجدتُ الشقة قد هُجرت! ووضع عليها قفل كبير، شعرتُ وقتذاك؛ بأن روحي هجرتْ جسدي، وذلك القفل الكبير أُغلق به باب قلبي عليكِ!. شعرتُ لوهلة بأن القدر لا يريد لي أن أحظى بحبيبتي لنسعد بل يريد لي التعاسة الأبدية فحسب! تذكرت حينئذ أن أغلبية قصص الحب؛ كُتِبت نهايتها بدموع الفراق، فلِمَ أنا الذي يحظى بنهاية سعيدة!؟..

بحثتُ عنكِ كثيراً ولم أجدكِ؛ حتى ضقتُ ذرعاً من وحدتي وتكورت على نفسي وعشتُ عزلتي حزيناً، ومرت الشهور كالسنين..

ذات يوم؛ شردتُ بكِ وناديتكِ وتمنيتُ رجوعكِ إلى قلبي المهجور؛ فسمعتُ قلبي يبشرني بأنكِ عائدة؛ وأنا دائماً أصدق قلبي، فلم أتعوده كاذباً أبداً.

بعد أيام؛ طرق بابي؛ ركضتُ، فتحت؛ وجدتكِ يا أحلامي، وجدتكِ منهارة ، عبوسة ، طالكِ الشحوب! تساءلت: ماذا

عساي أن أفعل؟ أأبكي أم أضحك؟. نصحني قلبي أن أسكن بين أحضانكِ ففعلت، وارتحت، ومن ثم سكنت!.

- نتزوج الآن؟.

كان طلبكِ ولم تنفرج شفتاكِ عن غيره؛ فنفذتُ طلبكِ وحلمي؛ كتبنا كتابنا، ودخلنا غرفتنا، وسكنتِ بحضني، وتأكدتُ وقتذاك بنفسي أنكِ مازلت عذراء، لم يمسك سوء طوال فترة غيابكِ وكنتُ أتساءل: أين كنتِ وأين عائلتك؟. حتى جاء اليوم الذي اعترفتِ لي بينما كنتِ بحضني؛ حيث دار بيننا الحوار الذي لن أنساه أبداً ما حييت، وتذكرتِ ما حدث وشهقتِ بنحيب السنين، وتهدجت كلماتكِ الخارجة:

- أهلي ... حينها؛ انتبهتُ لكِ؛ كفكفتُ دموعكِ، سألتكُ:

- أين هم ؟ ماذا حدث لهم ؟ هل هم بخير ؟.

فأجبتِ حينها على مضض؛ وقد بدا أن الذكرى كانت موجعةً لكِ وقاسية، قلتِ لي:

- ماتوا جميعاً !.

فقاطعتكِ مصدوماً، قلت:

- إنا لله وإنا إليه راجعون !.

أكملتِ حديثكِ شاخصة العينين الكحيلتين بين أحضاني ومخضلة الخدين بالدموع، قلتِ:

- أرغموني على الرحيل، ورحلنا إلى مدينة لا أعرفها، وقد كانو يريدون تزويجي لرجل غيرك؛ رجل أعمال من خارج مصر، كان سيدفع لهم أموال طائلة! وأنا بدوري رفضتُ وتمسكتُ بحبك، وما كان منهم إلا أن يعاملوني أسوأ معاملة؛ ثم هجروني وسافروا جميعاً إلى الخارج بعد أن رموا بي إلى الشارع دونما مأوى، واعتبروني عاقة، وقالوا لي اذهبي إلى حبيبكِ، وعرفت بعدها أن الطائرة التي ركبوها انفجرت بالسماء، ومات جميع مَنْ عليها؛ بكيتُ كثيراً ولكن ما حدث لهم ربما كان جزاءً لما فعلوه بي، أو ربما كان القضاء والقدر... وشعرتُ بك تناديني، فهربت من المدينة، ورحت أسأل الناس حتى اهتديت، وهرولتُ عائدةً إليك..

وقتذاك؛ سارعتُ بدفنكِ في أحضاني، قلتُ لَكِ:

ـ أعشقكِ... أدامكِ الله لي وبارك فيكِ؛ من اللحظة أنا كل عائلتكِ، و أَنْتِ كل عائلتي، ورحم الله موتانا جميعاً..

مرت الشهور؛ كنت أتمنى أن تحملين مني دليل حبي لكِ ونُنجب طفلاً يجمع جزءًا من روحي وجزءًا من روحكِ، كنت أتمنى أن أراكِ في طفلي. وأَنْتِ كانت جل أمنياتكِ أن تصبحين أم، وأن تضمي ابني وابنكِ إلى صدركِ، وتسقيه من حنانكِ، كما أسقيتني، وكنتِ تتمنينه يشبهني كثيراً.

لكن القضاء كانت له أحكامه؛ عندما أجريتِ تحاليل الحمل، اكتشفنا أنكِ عاقراً، وكانت الصاعقة!.

ـ قلت لكِ مراراً وتكراراً لا أريد أطفال، أريدكِ أَنْتِ فحسب، ولن أتركك أبداً، ولن أتزوج عليكِ أبداً أبداً... فكرة أني مجرد أن أُعجب بغيركِ تبدو لي محض هراء..

قلتُ لكِ ذلك كي أهدئ من روعكِ، حينما كنتِ غاضبة، بعد أن علمتِ أنكِ عاقر، وبعد موجات غضب حادة تملكت روحكِ، قلتِ:

ـ كنت أتمنى أن أنجبك من رحمي أنا، كنت أصبوا لأن أداعبك في طفلنا الصغير ، كنت أتوسم من الله أن أكن لابنك

أم كما كنت لك زوجة؛ كنت أحلم أن أرى روحانا تندمج في روح واحدة وتكبر أمامنا وتملأ نفوسنا سعادة، وكنت أريد، وكنت تريد... والله فعل ما يريد، وسأرضى بقسمة الله وأحمده على قضائه!.

وقتذاك؛ كنت أشعر بألمي وبألمكِ، لقد اكتشفتِ أنكِ أنثى غير قادرة على الانجاب، وهذا يعني لكِ أنكِ؛ أنثى مع إيقاف التنفيذ! وهنا كَمُن عذابكِ، وشعوركِ بالنقص، ولكني عوضتكِ عن كل هذا وأتم الله سعادتنا، وعشنا سنوات حتى توفتكِ المنية فجأة منذ خمسة سنوات، وكانت آخر كلماتكِ حينما قلت:

- سأنتظرك بالجنة إن شاء الله؛ حيث الورود التي لا تذبل؛ لا تتأخر عليّ سأشتاق لك!.

كانت فاجعتي من بعدها وأنَا بلا روح، لقد كنتِ روحي! والآن وأنَا على فراش الموت، أشعر بكِ أمامي وأحادثكِ وأشعر بأنكِ سعيدة لقدومي إليكِ، وأريد أن أخبركِ أنني أجريتُ بعض التحاليل بعد وفاتكِ نتيجة ما أصابني من أمراض بعد فراقك؛ واكتشفتُ صدفة أنني عقيم وهذا يعني

أنني رجل مع إيقاف التنفيذ! وصدق ما قلته لكِ من قبل: "نحن التوأم الذي أُنْجِبَ من رحمين"..

حبيسة المريخ

في ضوء قمر خافت لليلة من ليالي الشتاء قارسة البرودة؛ عاد "سالم" من الحقل إلى الدار راكباً حماره، مخترقاً الطريق الغارق في الضباب بين الحقول، وعلى أُذنيه تتناوب شتى أصوات الليل من صرير الجراد، وعواء الذئاب، ونباح الكلاب، والحمار يتحرك ببطء تارة، ويحرِن تارة أُخرى، ولسعات العصا تنهال من سالم على مؤخرته، وبكعبي قدميه يوالي لكزاته على بطنه، وتتحركان أُذناه في كل الاتجاهات الآتية منها الأصوات؛ وكأنه يخشى هجوماً مباغتاً من كلب أو ذئب كعادته في كل إياب لهما بالليل، وفي كل مرة يصيح سالم به غاضباً:

- حمار جبان... حتّام أتحملك؟ لقد ضقت ذرعاً من مكرك... يارب متى تفرجها عليَّ وأبدل بالمكّار هذا سيارة، أو دراجة نارية؟!.

يَقْطُنُ سالم مع أسرته في دارٍ من طابقين تقع بين الحقول بأطراف القرية. وما إن وصلها حتى تخلص من الحمار وقيَّده بالزريبة، وصعد السلم الخارجي، واختلى بنفسه في غرفته بالطابق الثاني..

أحضر من الصوان الكتاب الذي وجده من قبل بأحد المغارات الجبلية شرقي القرية، وقتما كان يبحث عن أي كنوز أو أي وسيلة لجلب المال، وكان آنذاك بصحبة رهط من الدجالين والمشعوذين؛ هكذا كان احساسه بهم، ورغم ذلك واصل معهم على أمل أن تصدُف معه ولو مرة وتُفرج بعدما كان يظنها لن تُفرج، ولكنها لم تصدُف ولم تُفرج، بل أحياناً كان يصرف من جيبه عليهم، واعتقد وقتذاك بأن ذلك الكتاب لابد كتاب سِحر، وستتحق أمنياته أخيراً، وسينفك نحسه للأبد، فأخذه دون أن يشعروا به، وخبأه بجيبه، واستعد لهذا اليوم الشتوي، الذي نامت به أسرته مبكراً بسبب البرد والضباب؛ كي يفتحه ويُحضِر خُدَّام الكتاب من الجِنْ؛ كما كان يشاهد رفقائه المشعوذين يفعلون أمامه من قبل، ليكتشف به الكنوز والخبايا ويخرجها، ويبيعها ويتغير الحال ويتخلص من حماره المكَّار، ومن وقت عثوره على الكتاب صار يتهرب من المشعوذين، ويتقاعس عن مرافقتهم حتى انفصل عنهم تماماً..

أشْعَلَ الفحم بالمجمرة، ونثر البخور فوقه وتركها أرضاً غير بعيدة عنه، رفع وجهه فبدا شاباً بالسابعة والعشرين من

عمره، شاحب الوجه، هذيل البنيان، مرتدياً سروالاً من الصوف، ومعطفاً مهراً ثقيلاً..

جلس متربعاً على الزربية الخضراء، بَدَتْ الغرفة من حوله كبيرة ذات إضاءة خافتة تَشِعُ من قنديل معلق بالجدار، وكان في جانبها سرير متهالك وصوان صغير، وبالجانب الآخر الزربية حيث يجلس، وغير بعيد عنه نَمرَقة مسجاة، ومن خلفه الباب..

جَذَبَ النَمرَقة أمامه؛ وضع فوقها الكتاب، فوجد غلافه من جلد سميك بني اللون، مرسومة عليه بوابة حجرية مزخرفة، ومن حولها حراس بحرابهم، وحروف هيروغليفية ورموز!. فتحه، فوجد صفحاته من جلد أصفر رقيق، وعلى وجه أول صفحة بالكتاب؛ وجد نقش لمنمنمة صغيرة، بدا أنها رسم للمجموعة الشمسية "درب التبانة" وفي وسطها رُسِمَ مساراً حلزونياً منطلقاً من كوكب الأرض إلى الكوكب المجاور له الرابع بالمجموعة؛ كوكب المريخ دونما أن يقطع - ذلك المسار - بأي نجم أو كويكب آخر..

وكان هناك حزاماً حول المريخ به بعض علامات مبهمة وحروف، وتُلحظ بصعوبة نقطة سوداء بنهاية المسار فوق سطح المريخ..

لم يكترث لهذا كله، ولم يفهمه، قَلَبَ الصفحة ليفهم أكثر؛ فتحركت وعادت أدراجها كما كانت تلقائياً، قَلَبَها مرة أخرى، فعادت كما كانت ثانية، تَمْتَمَ حانِقاً:

- أَعْتَقِدُ أن خدام الكتاب بدأوا مداعبتي!.

قَلَبَ الصفحة ثالثة، فكانت الصفحة التالية سوداء، وقبل أن يمعن البصر فيها، شَعَرَ بأن الغرفة تهتز بشدة، فنظر إلى ماحوله؛ فوجدَ كل شيء يتراقص عداه! قرر أن يتماسك ويتحمل من أجل تحقيق حلمه في الثَّراء..

فجأة؛ انطفأ القنديل من الاهتزازات، وأظلمت الغرفة؛ عندها فقط ازدرد رضابه، ولكنه فَكَرَ إذا ما أصابه خوف؛ هلك لا محالة، لذا قرر أن يظل متمسكاً بالشجاعة لأجتياز تلك الاختبارات ليسيطر على قوة الكتاب، ومن ثم يطلب كل ما يتمناه.

مد يده، تَحَسَسَ الكتاب؛ تناوله ثم وضعه بحجره وأطبق عليه بكلتا كفيه؛ عندها تحول الظلام من حوله إلى فضاء مظلم تناثرت به النجوم والكواكب، وشعر بأنه داخل مركبة فضائية بلورية شفافة تنطلق به من الأرض وتجتاز الفضاء بسرعة فائقة! حتى أنه لم يستطع الالتفات يمنة أو يسرة، وكأنه تجمد داخل جسده، صار يتنفس بصعوبة، وانخفض معدل نبضات قلبه، وفجأة؛ ظَهَرَ ذلك المسار الحلزوني المرسوم بمنمنمة الكتاب مضيئاً أمامه بعد أن ولجته سفينته الوهمية..

بعد لحظات وجد نفسه يقترب من كوكب المريخ، وشعر بأن مركبته الوهمية ستهبط به على سطحه؛ أحس ببرودة المناخ، وبدا المريخ لوهلة؛ أنه كوكب صخري ذو جبال شاهقة، ووديان ممتدة، ويدوران من حوله قمرين صغيرين..

تبَدَّتْ تلك النقطة السوداء التي رآها فوق سطح المريخ بالمنمنمة أمامه كنقطة سوداء صغيرة ومن حولها جبال جليدية بيضاء، ولكن سرعان ما اِتْسَعَتْ النقطة حتى

ابتلعته، وعندها فقط؛ فقد الوعي، وأظلمت الدنيا من حوله..

لا يعرف كم مر من الوقت؟ ولا يدري أين هو؟ وشعر بنفسه وقد بدأ باستعادة وَعْيه، وأحَسَ بخَدَر شديد طال جسمه، حاول فتح عينيه، وبالكاد فتحهما متألماً، وما إن فتحهما حتى انْتَفَضَ واقفاً، وجال ببصره لما حوله وتمتم متسائلاً:

- أين أَنَا؟.

وَجَدَ الكتاب ملقى أرضاً؛ تناوله ودفنه بجيب معطفه، نَزَلَ من فوق مصطبة صخرية كان مسجى فوقها؛ دلف مشدوهاً لأستكشاف المكان من حوله، فبدا أنه كهف عظيم منحوت في الصخر الأحمر ذو البريق المعدني..

تقدم في السير متعجباً، وجد الكثير من برك واسعة مليئة بالماء منحوتة بأرضية الكهف الصخرية، وعلى حوافها نمت شجيرات كثيرة مورفة خضراء اللون، جذورها ضاربة في القاع، ورأى بِركاً أخرى بها سوائل ذات ألوان داكنة تغلي وتبقبق وتتصاعد منها ألسنة البخار!. تقدم أكثر مخترقاً النور الأبيض الناعم المنتشر بالكهف متسائلاً :

- أين مصدره؟.

اقترب من بركة، انعكستْ صورته على صفحة مائها، وجد فقاعات هواء كثيرة آتية من الأعماق البعيدة، اِغْتَرَفَ منها بيديه وشرب على مضض، تمتم:

- ماء غير آسن، لكن رائحته حديد!.

وَقَفَ بين الأعمدة الصخرية العظيمة التي تنتشر بالكهف على مسافات متباعدة وتشبه إلى حد كبير الأعمدة بمعبد الكرنك؛ متأملاً الدقة التي نُحِتَ بها الكهف الجميل.

تقدم أكثر مخترقاً طبقات ضباب أحمر رقيقة تشبه السحاب بانبهار، ومن حوله البرك العجيبة، تَمْتَمَ مَشدوهاً:

- مؤكد أني أحلم... لا ليس حلم... إِذَاً ماكُنْهُ ذلك المكان؟ ربما كان المريخ بالفعل! ولكن كيَّفَ أتيت؟ الكتاب... أجل، السر في الكتاب!. ولكن المريخ لا ماء ولا هواء على سطحه! هل قلت سطحه؟ أنا لست فوق سطحه بل تحت سطحه!.

وخَلَصَ إلى أنه بكهف عجيب منحوت أسفل سطح المريخ، والأدهى أن به مياء وهواء، وربما توجد به مخلوقات مفترسة، وشعر بالقلق، وتساءل:

- كيَّفَ نقلني الكتاب إلى هنا؟.

قرر أن يفتح الكتاب ليجد ضالته، وقتئذ؛ جلس فوق مصطبة صخرية بجوار بركة ماء، وفتح الكتاب، وقلَب صفحة منمنمة الكواكب؛ فوجد الصفحة السوداء، أَمْعَنَ البصر فيها، فوجد بها رسم يشبه كف إنسان مشعة في ليل مظلم، وفوقها رسومات لنجوم وكواكب وحروف هيروغليفية كثيرة، تمتم:

- لربما وضعتُ كفي بالظلام دون أن أدرك فوق رسمة الكف فحملتني قوة الكتاب إلى هذا الكهف بكوكب المريخ!.

وتساءل فيما سيفعله؛ أيعود إلى الأرض أم يستكشف المزيد؟ ولكن كيَّفَ سيعود؟ ورجح أنه ربما عندما يضع كفه على الكف المرسومة بالصفحة السوداء ثانية؛ يعود إلى الأرض في الحال..

عندئذ؛ وضع كفه، ولكن لم يحدث شيئاً! حاول مراراً وتكراراً ولم يحدث شيئاً! زفر ضجراً:

- إِذَاً فقد هلكتُ لا مناص !.

ضاق صدره، وراح يندب حظه العثر، ويرثي نفسه الهالكة، فجأة؛ تناهت لأذنه هَمْهَمَات تقترب من بعيد؛ فَزِع، دفن الكتاب بجيبه، واختبأ خلف أحد الأعمدة القريبة.

توقفت الهمهمات؛ تنفس بأريحية، ثم تواصلت ثانية عن كثب؛ اقشعر بدنه وتوالت خفقات قلبه، قال في نفسه: ربما كان مخلوقاً مفترساً قاطناً بالكهف فيفترسني!.

توقف المخلوق يلهث غير بعيد عن العامود الضخم الذي توارى خلفه سالم، دعا الله في نفسه: يارب نجني؟. قرر: سأواجه قدري، وليكن ماهو كائن!. تَحَمَّسَ، وأظهر نفسه ببطء للمخلوق الرابض هناك، وعندما رآه؛ جَفَلَ رعباً!.

لقد كان مخلوقاً يشبه أنثى البشر؛ عَجوزٌ تمشي على أربع، رأسها أصلع، وعيناها واسعتين حمراوتين، وجهها أبيض شاحب جعد، هزيلة الجسم؛ ترتدي تنورة قصيرة من جلد بالٍ تواري بها عورتها، وثدياها عاريين متدليين!.

وَقَفَ سالم يتأملها مأخوذاً، ولما رأته؛ جَلَسَتْ متربعة؛ دَعَكَتْ عينها، وراحت بدورها تتأمله أيضاً، وفجأة انخرطت في ندب ونحيب، وغمغمة بلغة غريبة، وظلت تشير بيديها هنا وهناك وكأنها طفلة وَجَدَتْ أبيها بعد سنين من التيه.

تَمَلَكَه شعور بالعطف عليها وإحساس بأنها من البشر، وتساءل في نفسه: إن كانت هي من الأرض حقاً؛ فما الذي أتى بها إلى هنا؟ وكيف تعيش وماذا تأكل؟.

اِنْتَهَتْ من نحيبها؛ دَلَفَتْ صوبه على أربع، نَزَلَتْ بوجهها على قدميه تقبلهما مُتَمْتِمة بصعوبة:

_ take me out?

عندها نَزَلَ سالم أرضاً، وجلس متربعاً وأجلسها أمامه ومَسَكَ بيديها وقَبَّلهما، وفاضت عينيها بالدمع:

_ wher are your chip?

تمتمت بها، عندها اِلْتَقَطَ سالم ملامح لغتها، لقد كانت الإنجليزية، إِذَاً هي امرأة من الأرض كما اِعتَقد، وقد كانت لديه محصلة كلمات إنجليزية جيدة إلى حد ما، فحاول التفاهم معها ونجح.

كانت تظنه رائد فضاء، وكانت تريد العودة إلى الأرض؛ طمأنها بأنهما سيعودا إلى الأرض حتى تهدأ، وإن كان سالم يدرك تمام الإدراك بأنه سيمكث بالكهف حتى موته..

- أنا من مصر... من أي البلاد أنْتِ؟.

سألها بالانجليزية، فأجابت بصوت متهدج وبلغة عثرة:

- أَنَا من المملكة المتحدة... وأَنَا أحب مصر بلدك، وأهراماتها ومعابدها، وقد زرتها كثيراً.

وأضافت بعد لحظات صمت:

- أعشق الحضارة المصرية وقد شاركتُ في بعثات علماء كبار للتنقيب عن الكنوز والآثار كثيراً في مصر.

قال لها سالم ممازحاً إياها:

- أَنَا أشبهكِ كثيراً... لقد شاركتُ في بعثات مشعوذين كبار للتنقيب عن الآثار وبيعها خارج مصر، ولم أوفق في مرة أبداً.

وضحكا الاثنين كثيراً، تذكر سالم أن بجيبه علبة سجائر؛ أخرجها، أشعل واحدة، وأشعل لها واحدة، سعلت في بادئ الأمر، ثم راحت تلتهمها بنهم حتى أنهتها..

نهضَ سالم وتبعته العجوز الانجليزية على أربعتها، وجلسا فوق المصطبة الصخرية، وراحا يدخنان السجائر بنهم، وراح سالم يطمئنها أكثر فأكثر، ولما اطمأنت؛ استقامت مخارج حروفها واتَضَحَتْ لهجتها، سألها سالم:

- كيَّفَ أتيتِ إلى هنا؟.

وجدها نزلت على أربع، ومشت أمامه متمتمة:

- اتبعنِ؟.

تبعها، فابتعدا داخل الكهف، واجتازا الضباب الأحمر، والأعمدة الضخمة، والبرك المبقبقة، والشجيرات المورفة، والمصاطب الصخرية، وأكوام متناثرة من فتات الصخور؛ حتى وصلا إلى غرفة بنهاية الكهف.

صعدَتْ هي بضع درجات حتى وصلت مدخل الغرفة وتبعها سالم، دَخلا الغرفة فبدت غرفة كبيرة منحوتة بالصخر مضيئة بضوء أبيض منبعث من مشكاة بالجدار، وتنتشر

بها أكوام من عظام حيوانات صغيرة في حجم القطط، وأكوام أخرى من جلودها..

اقترب سالم من المشكاة فوجد حجر ماسي مشع في حجم كرة القدم، هو المصدر لضوء الغرفة. كانت العجوز قد دَخَلَتْ غرفة أخرى بابها من داخل الغرفة الأولى، وبعد لحظات خَرَجَتْ وبفمها كتاب، وجلست بالقرب من سالم فجلس..

مسكت الكتاب بيدها، ولاحظت نظرات سالم لأكوام العظام والمشكاة، فأشارت إلى أكوام العظام، قالت:

- حيوان صغير موطنه الأصلي الأرض، أحضروه من زاروا الكهف قديماً، وتأقلم على مناخ الكهف؛ كان غذائي المُفضل، أمَّا الماسة فهي حجر مشع مجهول الإسم، وقد تم توزيعه بجدران الكهف ليضيئه بطريقة عجيبة.

رفعت الكتاب بيدها، قالت:

- هذا ما أتى بي إلى هنا!.

تأمل سالم الكتاب، فوجده نسخة طبق الأصل من الكتاب الذي يملكه، ذُهِلْ، قالت العجوز:

- هذا كتاب سِحر قديم، يفتح ممرات للانتقال بين الكواكب في لمح البصر، استخدمه بعض الكهنة بإحدى العصور القديمة في مصر - بلادك - للسفر بين الكواكب والمجرات، ونقل الأشياء من الأرض إلى الكواكب والعكس!.

اِنْبَهَرَ سالم بتلك المعلومات التي يسمعها لأول مرة في حياته!. فتحت العجوز الكتاب على الصفحة السوداء، قالت:

- إذا ما وضعت كفك هنا، تنتقل إلى الكوكب المحدد بالصفحة السابقة، وإذا ما أردت العودة تقلب الصفحة فتجد كوكب الأرض هو نهاية المسار - لم تقلب الصفحة لتوضح - ثم تقلب الصفحة مرة أخرى فتجد الصفحة السوداء وكف العودة!. سألها سالم:

- لماذا لم تقلبِ الصفحة؟ ولماذا لم ترجعِ حتى الآن؟.

قطبت حاجبيها، قالت بحزن:

- للأسف... الكتاب به صفحات الانطلاق فقط، أما صفحات العودة فقد قُدَّت منه، وهذا مالم ألاحظه قبل تورطي في هذه الرحلة - ثم نظرت إليه سائلة - هل أَنْتَ رائد فضاء حقاً؟ وإن كنت فأين سفينتك التي سنعود بها؟.

لم يجبها، صمت يفكر: ماذا لو كان كتابي أيضاً قد قُدّت منه صفحة العودة؟. الكتاب بجيبه بيّد أنه عاجز، عن إخراجه خوفاً من المفاجأة..

أفاق من تفكيره، وجدها تسأله:

- كيَّفَ أتيت إلى هنا؟.

عندها أخرج الكتاب، فشهقت شَهقةً قَويةً، وطوحت كتابها بعيداً، وخَطَفَتْ كتابه من يده وراحت تقلب الصفحات بنهم للبحث عن صفحة العودة، وهو يراقب ملامح وجهها الجعد مرتجفاً خائفاً من عدم وجود صفحة العودة، وفجأة نظرت إليه واحتضنت رأسه وأخذت تقَبِّله فتخلص من ذراعيها، وسألها مرتعداً:

- هل سنعود؟.

رَفَعَتْ الكتاب أمامه، فرأى كف العودة فخطفه من يدها، وقال مبتسماً:

- إذاً لنستعد لرحلة العودة إلى الأرض؟.

ونزل أمامها، ونزلت خلفه، وعندما استدار والتفت وجدها قد استقامت، وتمشي على رجليها كباقي البشر، ضحك متمتماً:

- سبحان الله؛ الأمل كان علاجها!.

وصلا لمصطبة صخرية، تربع سالم فوقها؛ فتح الكتاب ووضعه بحجره، واحتضنته العجوز من الخلف، سألها:

- كم عمركِ؟ وكم مكثتِ هنا؟.

- في أي الأعوام نحن؟.

- ستة وعشر وألفين!.

- أَنْتَ تمزح؟.

- لا أَمْزَح صدقيني!.

- إن كنت لا تمزح فعمري الآن أكثر من مائتي سنة، وقضيت بالمريخ أكثر من مائة سنة !.

جحظت عينا سالم، قال في نفسه: لقد فقدت المرأة عقلها!..

قال لها:

- أنَا أَمْزَحْ معك الحقيقة، نحن في سنة تسعمائة وألف.

وضحكا الاثنين، ثم وضع سالم كفه فوق كف العودة بالكتاب، ووضعت هي كفها فوق كف سالم، وفجأة؛ أظلمت من حولهما، وتيبسا بأجسادهما، وعادا أدراجهما إلى الأرض، يجتازان الفضاء في لحظات، وعندما أفاق سالم وجد نفسه بغرفته، ولم تشرق الشمس بعد.

فكر في أنه قد نسي أن يسأل العجوز الإنجليزية عن اسمها؛ استدار ليتفحصها، وجدها جثة هامدة باردة، لا نبض بها ولا أنفاس، ووجها يشع بزرقة الموت، قال:

- مكتوب لكِ أن تدفني بالأرض!.

أَخَذَ فأساً، وحَمَلَها على كتفه إلى المقابر فهي قريبة من داره، ولم يذهب إلى الزريبة لأنه موقن بأن الحمار يغط في نوم عميق..

حَفَرَ لها قبراً، ووضع به الجثة، ووضع كتاب السحر فوق صدرها، وواراهما الثرى، وقفل عائداً إلى البيت قبل أن تشرق الشمس..

دخل غرفته، طرح جسمه فوق السرير، أغمض عينيه، زفر بارتياح، فجأة؛ شعر بشيء صلب أسفل ظهره، قام لينظر، وجده كتاب السحر؛ جَحَظَتْ عيناه..

الخلود

شاب؛ يجلس متفكراً ومتأملاً فيما حوله، فوق مصطبة منحوتة من الصخر؛ وثيرة على شاطئ حصباءه من اللؤلؤ، لنهر لألاء الماء عذب رقراق، ومن حوله الزعفران باثق والريحان يعبق الهواء بعرفه، وغير بعيد وعلى الشاطئ الآخر انتصبت قصوراً عظيمةً تحيطها الحدائق الغناءة والأجمة الخضراء، والأشجار السامقة التي لا تبين لارتفاعاتها نهاية، وتصدر منها ضحكات عذبةً مختلطة لرجال ونساء بدا أنهم في السعادة من نهاية..

من مقربة؛ بدا الشاب أنه في العقد الثالث من عمره؛ أمرد الوجه وريانه، سبط الشعر وأسوده، مرتدياً ثوباً من حرير سندسي أخضر، ومزركش بخطوط ذهبية، محلى المعصمين بأساور من ذهب وفضة..

يخيم ظِلاً ناعماً ومنيراً على كل الأشياء من حوله..

فجأة؛ صَدَحَ ـ خلف الشاب ـ صوتاً نسائياً رقيقاً آسراً، كأنه تغريدة كروان أو عندلة عندليب أو زقزقة عصفور، قالت:

ـ حبيبي ؟.

استدار الشاب ونظر خلفه وابتسامة عريضة محتلة كامل تقاسيم وجهه؛ فتجَلَتْ أمامه امرأة فارعة الطول، تدلف صوبه من قصر قريب عظيم البنيان ومن حولها الزهور بألوانها المختلفة مبثوثة، والفراشات البديعة الألوان تحوم بالأفق في بهجة ربيعية.

اقتربت، فتبَدَتْ امرأة بالعقد الثالث من عمرها، وضاءة الوجه، واسعة العينين سوداواتهما، أسيلة الخدان، حمراء الشفتان، شعرها ذهبي ناعم مرسل حتى كعبيها، ممشوقة القد، كاعبة النهد، تَرَفَّلُ في فستان أبيض حريري ملتف حول خصرها الدقيق، موشى باللؤلؤ، شذاها مسكاً تنثره بالأفق من حولها، تَلِفُها هالة من نور، تمسكُ بيديها كأسين بلوريين، ملؤهما الخمر الأحمر، وتعلوها ابتسامة آسرة سافرة عن أسنان عاجية براقة..

وقف الشاب، فبدا وافر الطول والامتلاء، اقتربت منه ولثمته من شفتيه، ثم أخذ كأساً وجلس فوق المصطبة، وجَلسَتْ بجواره. ارتشف جرعة وتمطقها قائلاً:

- الحمد لله - ثم نظر إليها - أشكركِ زوجتي الجميلة؟.

اِبْتَسَمَتْ حور العين قائلة:

- لا شكر بجنة الخلد يازوجي الحبيب، لقد خلقنا الله لكم أنتم عباد الله المؤمنين جزاءًا لكم، ورهن إشارتكم!.

ثم اِرْتَشَفَتْ من كأسها جرعة ووضعته بجوارها ومالت على صدره وطوقته بذراعها، فراح الشاب يداعب خصلات شعرها المتدلية على جبينها الرقراق، وبعد لحظات انفكت عنه، وهَمَسَتْ بعذوبة قائلة:

- اِحكِ لي عن عَمَلُك الذي أتى بك إلى الجنة؟.

نظر لها الشاب وابتسم ثم قال:

- الخلود !.

ابتسمت حور العين، وأصغت السمع، فأكمل قائلاً:

- كنت شاباً رقيق الحال من أسرة فقيرة، أبي وافته المنية لما كان عمري خمسة عشر عاماً، وكان لي أختين، أصغر مني سناً، فاضطررتُ أن أعمل وأكد حتى أزوجهما، ولم أكترث لأمر زواجي، وبعد زواجهما بعشرة أعوام وفرت مالا لا بأس به، يكفي لزواجي، وكنت آنذاك قد اجتزت

الأربعين سنة من عمري، فسألتُ نفسي: أأتزوج الآن ؟.

قالت لي أمي ذات صباح وأنا ذاهب إلى العمل:

- وجدتُ لك بنت الحلال وبعد عودتك سنذهب معاً لنخطبها؟.

فرحتُ كثيراً، ذهبتُ إلى العمل وقلبي مشغول؛ أخيراً سأتزوج بعد سني الشقاء...

قاطعته حور العين سائلة:

- ماذا كنت تعمل؟.

- عامل على باب الله؛ أمر بالأسواق ومعي عدتي، وأجلس على الأرصفة بانتظار رزق الرزاق.

- أكمِل؟.

- انتهى اليوم وقد رزقني الله، عُدْتُ إلى البيت، فلم أجد أمي، تَنَاهَتْ إلى أذني جلبة بالعمارة التي نسكن بطابقها الثاني، هرعتُ إلى السلم أرتقيه، فوجدت مصدر الجلبة شقة جارتنا ذات الخمسين عام، والتي مات زوجها منذ سنون، وترك لها أربعة أطفال أيتام في رقبتها، ولم يترك لها سواهم، وما من مصدر رزق سوى بيع الملابس التي

تشتريها الأم من بعض المصانع للجيران بالتقسيط والنسيئة.

دخلتُ الشقة، وجدتُ أمي وبعض النسوة من الجيران كلهن في الحزن من نهاية، وعرفتُ منهن أن أم الأيتام مريضة بمرض خبيث، ولابد لها من عملية جراحية وإلا ماتت.

لم أنم تلك الليلة، من التفكير في حال أم الأيتام تلك، وحال أطفالها إن مسّها سوء لا قدَّر الله!.

- ألم تنم بعد؟ لقد اعتذرتُ لصديقتي عن عدم ذهابنا إليهم وحكيتُ لها عن مرض جارتنا؟!.

قالتها لي أمي، بعدما دَخَلَتْ غرفتي وقد أحضَرَتْ لي كوباً من الشاي، وبعدما استويتُ جالساً، قلت:

- تشغلني أم الأيتام يا أماه !.

جلست أمي بجواري، زَفَرَتْ ثم قالت:

- القدر ما منه مفر يا بني!

- لكن الأيتام ما ذنبهم أن يهلكوا من بعدها؟.

- لن ينساهم الله، لاتضجر؟.

- أفكر في أن أُساعدها، وألتمسُ العوض من الله!.

- كيِّفَ تساعدها؟ إن عمليتها لا يكفها كل ماجمعت بالسنين العجاف، وأنت تعرف أني أريد أن أفرح بك قبل رحيلي !.

- بارك الله لنا في عمرك وأطاله يا أماه..

تركتني أمي، وأنا غارق في غياهب التفكير وفي نتائج تضحيتي تلك، فقارنتُ بين النتائج الدنيوية، والنتائج الأخروية، فَرَجَحَتْ كفة الأخروية، فكرتُ في الخلود... أجل الخلود، وفكرتُ إن آثرت نفسي وتزوجتُ بالمال فكم عاماً سأقضي متزوجاً مهما طال العمر أوقصُر؟ ولكن إن ادَّخر لي الله جزاءًا لفعلي الخير ابتغاء وجهه؛ زوجة من حور العين بالجنة فكم عاماً سأقضيه معها؟ لا عدد، لا محدود، لانهاية، هو الخلود ثم الخلود.

حينئذ؛ قَرَرْتُ؛ وأخفيتُ عن أمي الأمر، وابْتَلَعَتْ تكاليف عملية أم الأيتام كل ما جمعتُ بسنيني العجاف، وكنت سعيداً؛ راض النفس، ولكن قدّر الله وماشاء فعل؛ ماتت أم الأيتام في غرفة العمليات، ولما عَرَفَتْ أمي بالأمر، قالت لي:

- انظر الآن ماذا أنابك، خسرت أموالك، وحدث ماحدث!.

- يا أمي أنا راضٍ لست ساخطاً وأحمدُ الله على عاقبة أمري، ولن أفكر بالزواج أبداً في هذه الدنيا، فحسبي جزاء ربي بالآخرة.

ومن بعد وفاة أم الأيتام، تكفلتُ بأطفالها، واعتبرتهم أولاداً لي، وغططتُ في العمل حتى أذناي، لتوفير المال لطعامهم وملبَسهم وتعليمهم، وبعد مرور السنين، ووفاة أمي، كبرتُ بالسن وخارت قواي، لكن بعد أن شبَّ الأطفال وأصبحوا رجالاً يعتمدون على أنفسهم، ومرضتُ بنفس مرض أم الأيتام الخبيث، لكني لم أخبر أحداً، حتى وافتني المنية، وتغمدني الله برحمته، وأصبحتُ معكم الآن وعوضني الله عن الزوجة بثلاثة... وبالخلود.

صَدَحَتْ ضحكات وأغنوجات ساحرة أمام القصر المنيف. اِلتَفَتَتَ الحورية خلفها وتبسمَتْ ثم قالت:

- وها هما قادمتان؛ زوجتك الثانية من حور العين، وزوجتك البشرية التي تزوجتها بالجنة..

كيدهن

عندما *تُظلم* الشمس فجأة، وتصبح وحيداً في ظلمات لج؛ لا تدري سبباً لجل آلامك... هذا ما أشعر به الآن!.

منذ أكثر من عقدين؛ كان أبي السيد "عبد الغني" متزوجاً من السيدة "جليلة" وكان لديه أربعة أولاد وفتاة، كانوا يتدرجون بالأعمار من عشرة فأقل..

ذات يوم رأى "منى" أمي، وحدث أن كانت موظفة بسيطة بإحدى شركاته، تنحدر لعائلة فقيرة زرية، تقطن إحدى الأحياء العشوائية حول القاهرة؛ أُعْجِبَ أبي بحسنها وملاحتها، ومرت الأيام، وتزوجها سراً بعقد شرعي - بناءً على طلبها - اتفق معها على عدم الانجاب!.

أمي كأي امرأة تتحرق لإنجاب طفلاً لتصبح أم، وشعرت بأن هذا الشرط مجحف ويسلبها حقوقها!. لا أدري لماذا ارتبطت به مع وجود شرط كهذا؛ ربما لينتشلها من الفقر، أوربما لأنه زوج لا أكثر!.

حَمَلَتْ بي ولم تعلمه بالخبر حتى نَدَحَتْ بطنها، فأمرها بأن تتخَلَص من حملها، وهذا ما رفضته أمي، وبدأ النقار

بينهما، فلم تتحمل أمي الوضع المتذبذب، غادَرَتْ شقته، وعادت إلى شقة أمها، وطردها من العمل..

مرت الشهور، وقاربت على إنجابي، وقد كانت لها صديقة حميمة بالعمل تدعى "فاطمة" لم تتخل عنها أبداً، كانت تقرضها الأموال وقت عوزها وفاقتها..

كَبُرَ على "فاطمة" الظلم الذي وقع لخليلتها "منى" وذات يوم ذَهَبَتْ إلى زوجة أبي؛ السيدة "جليلة" تستجديها وتستعطفها، وحكت لها عن قصة زواج أمي بأبي ونذالته، فوجدتها غير غاضبة ولا مكترثة، بل متعاطفة مع أمي.

كانت جالسة في بهو القصر في حلة حريرية، مشعلة سيجارة نسائية فاخرة، وفاطمة منكمشة أمامها أرضاً، قالت:

- لا يصح أن نترك لحمنا ودمنا، نحن لسنا بأنذال، وأنا سأتصرف مع عبد الغني!.

وأعطت فاطمة مبلغ من المال لتعطه لأمي نفقة ولادتها، وشكرتها لوقوفها بجانب منى، فقالت فاطمة:

- هذه خليلتي ياسيدتي، ولا يصح أن أتخلى عنها ولا أُشكر على فعلي معها!.

وبعد ولادتي ظلت تتردد عليها لمدة عامين، وكانت تُبدي السخاء، والعطف والرحمة، وكانت أمي تُقَدِّر جليلة هانم قدرها وتحترمها، وأبي ليس له أي دور بتاتاً، ولا يكترث، وكأنه لا يعلم خبراً..

"رائد" كان اِسمي، ولكن رائد في ماذا؟ لا أدري؛ حتى هيئتي رائد بها، فأنا طويل القامة، هزيل الجسم، وعابس الوجه.. حكَتْ لي جدتي كل ما سلف، وحكَت لي أيضاً عن آخر لقاء كان لها مع أمي، قالت: "وجدت أمك تحملك - وعمرك عامين - وتهِمُّ بالخروج، كانت ليلة شتاء قارسة البرد، ومطرها على وشك السقوط، عندها انقبض قلبي، سألتها:

- أين ستذهبين في هذا الوقت وفي هذا المناخ يا منى؟.

أجابتني على مضض:

- السيدة "جليلة" تريد أن تقابلني وترى الصغير!.

- أفي هذا الوقت المتأخر من الليل؟!.

- لا تقلقِ، فاطمة ستذهب معي؟.

وَدَّعتُها وقد ازداد انقباض قلبي، وقد اعتلجني الشك، فهي ضُرتها مهما أظهرتْ، رغم وقفتها مع منى، فما كانت مساندتها لها سوى ملاليم، بيد أن منى لها حقوق عندهم تفوق ذلك بكثير، مرت الليلة، وجاء الصباح ولم تعد منى بعد، زاد قلقي، وقض مضجعي الجمر خوفاً عليها، حتى طرق بابي؛ إذ بالشرطة تخبرني عن وفاة أمك وصديقتها بحادثة سير، ذُهِلتُ ولم أقتنع، وساورتني ظنوني أن الفاعل هي السيدة جليلة! ولكن لادليل لدي لأورطها وآخذ بالثأر، وكانت المعجزة نجاتك أَنْتَ حينما افتدك أمك!.

ليلتئذ؛ قلتُ للشرطة أنها هي مَنْ قتلت ابنتي وصديقتها. وعند استجوابها قالت أنها لاتعلم شيئاً. ولم يثبت عليها شيء، وأخيراً علم أبوك بما حدث، ولتثبت حسن نيتها لأبيك وللناس؛ طلبت مني أن تكفلك وترعاك بين أبنائها، ولكني رفضت، وتكفل أبوك بنفقتك، وتعليمك، حتى كبرت، وصرت شاباً، وانتقلت لتعيش بينهم."

رحمك الله يا أمي، وعندما انتقلتُ إلى بيت أبي، وجدتُ سوء المعاملة، ولم أُقم عندهم طويلاً، لأني طُردتُ من البيت، بناءً على طلبها، وأسكنني أبي بتلك الشقة بالإيجار، وكنت دائم التردد على جدتي، وجعلني أعمل بأحدى شركاته عملاً بسيطاً نظير مبلغ زهيد..

وكلما تذكرتُ ذاك الموقف الذي طُرِدتُ من البيت بسببه، امتزجت دموعي بضحكاتي؛ السيدة "جليلة" قالت لأبي ذات يوم؛ أنني دخلتُ عليها غرفة نومها، وكانت مرتديةً قميص نوم قصير وكنت أحملق إلى جسمها بنهم، وكدت أن أتحرش بها!.

والحقيقة؛ أنها هي التي نادتني ولمَّا لبيتُ سبتني وزجرتني ومانظرتُ لجسدها قط، وحدث ماحدث..

أتَعَجَبُ؛ امرأة تدلف العقد الخامس من عمرها، ومن المفترض أنها بمكانة الأم بالبيت، تتهمني بتلك التهمة الباطلة، والتي سرعان ماصدقها أبي، وسخط عليّ! لماذا؟ هذا ما يبكيني، أما ما يضحكني فهو ظني في أنها تريد أن

تبرهن لنفسها أولا ولأبي ثانية؛ أنها مازالت أنثى مرغوبة، ومِمَّنْ! شاب أصغر من أبنائها!.

يالها من خرفة خرقة، والله ماعدتُ أستبعدها من قتل أمي!.

****

بالأمس؛ اجتزتُ العشرين سنة، وأردتُ أن أتزوج وأستقر، ذهبتُ إلى مكتب أبي، جلست، قلت له:

- أريد أن أتزوج؟.

كان جالساً خلف مكتبه الفخم، مرتدياً بدلته الأنيقة، لا تبدو عليه علامات الكبر أو تجاعيده، وجهاً رياناً، وحاجبان مقطبان، كان يدخن سيجاره الضخم بشراهة. نفخ دخانه باتجاهي مبتسماً ثم قال:

- يا نجس! أَبَلَغْت وظننتَ نفسك رجلاً؟.

طأطأتُ رأسي أرضاً، أضاف بغضب:

- ألهذا كنت تغازل المرأة التي ربَّتكَ يا وقح ؟.

- والله مافعلت - ثم علا صوتي - أنا لا أريد سوى الحلال! وأَنْتَ تعلم أني لا أملك مالاً... قاطعني معنفاً، قال:

- يا وقح، وتتهم المرأة الشريفة الخيرة التي آوتك بالكذب ؟.

- أنا لا أتهمها... قاطعني:

- اعتمد على نفسك، وزوِّج نفسك، لن أزوجك من مالي يا نجس، انتهى.

- أنا ابنك... ابنك - ثم نزلت دموعي - زوجني كما زوجت أخوتي وأسست لهم بيوتاً.

- أتحقدُ على أخوتك وتغار منهم على تعبهم وكدِّهم، هم تعبوا معي، عملوا معي، ماذا فعلت أَنْتَ؟ ماذا قدمت لي؟.

- أنا أعمل معك أيضاً، ولا أريد أكثر من حقي، أما أَنْتَ أبي الذي أنجبني؟.

- ليس لعملك فائدة معي، أُغرُب عني لا أريد أن أرى وجهك - ثم ساخراً مني - يريد أن أزوجه؛ والله عجائب!.

كفكفتُ دموعي، نهضتُ وهممتُ بالخروج، ولكن حاكت في صدري جملة كُبتت سنين، فاستدرتُ وقلت له:

- أَنْتَ أب ظالم!.

قام فجأة، واقترب مني وصفعني على وجهي بقوة، وصرخ بي:

- أخرج يا عاق، لا أريدك في عملي أو في بيتي ؟. صرختُ به:

- أَنْتَ العاق لست أنا، ظلمتني وظلمت أمي من قبل، اتقِ الله؟

- غلطتي الوحيدة أني تزوجت أمك، تلك الحثالة، التي كانت تطمع في أموالي .

ابتعدتُ عنه قليلاً، قلت بصوت متهدج مقهور:

- اذكروا محاسن موتاكم؟ هي في عالم الحق، لا تتقوَّل عليها بما ليس فيها، أَنْتَ مَنْ توددت إليها طمعاً فيها، نهشتها لحماً ورميتها عظماً!.

- هأ! لم تكن لها حسنة معي، عاقتني مثل ما عاققتني أَنْتَ الآن .

- حسبي الله...

- اِنكشِح؟.

- سأنكشِح.

خرجتُ من عنده باكياً؛ وعدتُ إلى الشقة كارهاً لثيابي..

****

منذ عدة ساعات؛ أتوا أخوتي الأربعة يتمطوون الخطى وأبلغوني تأكيداً لما قاله لي أبي بالمكتب، وها أنذا أهمُّ بلملمة أمتعتي، ولكن أين الوجهة؟ لا يوجد سوى جدتي الطاعنة بالسن وجهة، وخالتي التي توفى زوجها وترك لها بنتاً جميلة، وسكنت بشقة جدتي ترعاها، وتنفقان من معاشيهما، والمال الذي كنت أرسله لهما قبل طردي من العمل، سأذهبُ، وسأبحث عن أي عمل نقتات منه، عسى أن يعوضني الله خيراً ..

"رؤى" بنت خالتي؛ إن شاء الله سأطلبها للزواج، هي من جلدتي، وليعينني الله على توفير المال للزواج بها وإسعادها..

فجأة؛ أتوقف عن تذكر أي شيء يزعجني، أعدلُ من جلستي على المقعد، أتناول هاتفي من فوق المنضدة، اتصل بجدتي، ترد عليّ رؤى، أقول لها:

- أنا قادم إليكم .

تضحك وتقول:

- زيارة ؟.

- لا... زواج .

- مِمَّنْ؟.

- أمن جدتي مثلاً أم خالتي؟.

تضحك ثم تسألني:

- إِذَاً مِمَّنْ فما تبقى سواي؟.

- أصحيح؟.

- بلى!.

- إِذَاً منكِ أَنْتِ طالما لم يتبق غيركِ!.

تستحي ثم تنهي المكالمة بدون استئذان كعادتها!.

- كم أعشق سجيتها!.

يدق هاتفي، أنظر به فإذا به زميل لي يعمل بشركة أبي، أتعجب؛ أفتح الخط، يقول:

- مصيبة يا رائد!.

أرد بقلق:

- ماذا حدث؟.

- زوجة أبيك وأخوتك الأربعة، انقلبت بهم السيارة منذ قليل وقد فارقوا الحياة جميعاً، لم يتبق لك سوى أبيك وأختك المتزوجة!.

أُصدم، أقول:

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!.

- وأبيك في حالة يرثى لها .

- كان الله في عونه!.

وأُنهي المكالمة وأنا أرتعد، أرتجف، أتصبب عرقاً..

أنهضُ كي ألملم أمتعتي وأرحل، يدق الهاتف مرة ثانية؛ أنظر بشاشته فأجده رقم أبي؛ تزايلني الرجفة، أرفض المكالمة، أغلق الهاتف، وأذهب لأتجهز للرحيل إلى عائلتي الحقيقية، متمتماً:

- لستُ نبياً والقسوة لا تورث إلا القسوة!.

لحظات، وأتراجع، أمسكُ الهاتف، أقوم بالضغط على زر التشغيل، ثم أنتظر الشاشة لتضيء..

حب حتى الثمالة

عند تهيؤ الشمس للرحيل؛ كان شاباً ثلاثيني العمر، نحيل الجسم، طويل القامة، يرتدي معطفه الجلدي الأسود، ويلتحف ملفه الصوفي البني ليتقي برد الشتاء القارس؛ واقفاً في شرفة الطابق الثاني بمنزله المحاط بالأجمة الخضراء من كل الاتجاهات..

كان يتأمل السماء الملبدة بالغيوم السوداء، التي على وشك إسقاط حمولها أرضاً..

بدا وجهه عبوساً، وعيناه تنضحان ألم وبؤس، وأسفلهما سواد شديد يثني على بؤسه..

بدا شارداً، ممسكاً بسيجارة أشعلها تواً. ومضَ البرق في ثنايا السماء البعيدة، فخُيِّل إليه وكأنه نقش لأول حرف من اسمها..

اشتد البرق، علا هزيم الرعد، وبكت السماء وتساقطت دمعاتها ..

انطفأت السيجارة لمّا لحقتها قطرات المطر، اشتد البرد، عاد أدراجه مُغمغماً:

- سأدخلُ فالجو صار برداً!.

كانت عقارب ساعة الحائط الباهتة المعلقة بالجدار بالداخل، تزحف صوب السادسة؛ أغلق باب الشرفة الزجاجي، دلف إلى مقعد بباحة البيت، جلس، دك ماتبقى من السيجارة بالمنفضة الموضوعة على منضدة وطيئة أمامه، وبجانبها علبة السجائر والقداحة، وقنينة خمر. أشعل سيجارة جديدة، وصب كأس من الخمر، وجرعه دفعة واحدة!.

كانت الإضاءة خافتة، تنبعث من عدة مصابيح واهنة معلقة بالجدران، طل البرق عليه من خلف زجاج الشرفة أمامه، شعر بأن الزجاج سيتحطم من قوة صيحات الرعد ..

أطرق رأسه قليلاً، ثم رفعها فجأة وبدا أنه تذكر شيئاً ما !.

شرد بذهنه بعيداً عن كرسيه، لاحت بأفقه سحابات ذكرياته البائدة، نطق بصوت مُتقطع:

- لم تتركين لي... سوى بصيص من ذكرياتكِ ... الموجعة؟!.

تسربت دمعة من عينه اليسرى إلى خده الشاحب، فكفكفها سريعاً، وكأنه يخشى أن تراها عينه اليمنى ..

صب كأس خمر وجرعه سريعاً؛ صمت لحظات وقد إحمرَّت عيناه، وفجأة؛ شعر بأن آذانه تلتقط نداءات امرأة بصوت آتٍ من مكان سحيق... صاح ممتعضاً:

- الصوت بعيد... الصوت بعيد!.

عاد الصوت ليصدح بأذنيه فصاح تارة أخرى:

- لا أسمع! الصوت بعيد ...أرجوكِ ماذا تقولين؟!.

ذُرِفَتْ دموعه بغزارة، دك ماتبقى من السيجارة بالمنفضة، هب واقفاً كالمذعور، راح يذرع الباحة رواحاً ومجيئاً واضعاً كفيه خلف أذنيه ليصيغ السمع، وباحثاً عن مصدر الصوت، ولكن دون أيما فائدة؛ فقد انقطعت النداءات!.

حينئذ؛ انخرط في نحيب حاد..

لحظات وتوقف أمام الموقد المتوهج، لاذ في صمت مُطبق؛ تخلل الصمت هزيم الرعد القوي، وبعد لحظات نزل على ركبتيه مستقبلاً المدفئة البارزة عن الجدار، مد ذراعيه أمامه متأملاً النار..

فجأة صرخ ساخطاً:

- أين دفئك أيتها الجحيم ؟... لا زلتُ أشعر بالبرد ... أشعر بالبرد!.

أطرق رأسه، أراح إليته فوق كاحليه، وضع ذراعيه فوق ظاهر فخذيه وكأنه في جلسة استراحة مابين السجدتين بصلاة المسلمين، أو كأنه يؤدي طقوساً للنار كعبدتها!.

لحظات ورفع بصره لأعلى، فوقع بصره على صورة مبروزة بإطار مُذهب، ومعلقة على الجدار أعلى المدفأة يميناً..

راح يتأمل الصورة التي يظهر فيها بجانب زوجته الصهباء الباسمة، ذات الشعر الحريري المنسدل على كتفيها، والعينين الخضراوين الواسعتين، ووجهها الوضاء. تتوسطهما فتاة صغيرة في سن الرابعة تحملها الأم على ذراعها، تجمع في ملامحها بين أمها وأبيها؛ الوجه الوضاء، هو ما أخذته من أمها، ومن أبيها نظرته الشاردة والواضحة بتجل في الصورة!..

أغمض عينيه، أجهش بالبكاء، رمى رأسه إلى الخلف، وفجأة، التحفت الرعشة الشديدة سائر جسمه، صاحبها أنين وتوجع؛ ثم سقط على الأرض مغشى عليه!..

ومايزال البرق يطل من زجاج النوافذ من فينة لأخرى، ومازال الرعد يدغدغ سماء الصمت بالخارج، دون كابح أو مانع..

****

فجأة؛ أحس بتناوبْ سحابات رائحة نتانة على أنفه؛ فتح عينيه؛ فذ من جلسته، اشتم الرائحة، تقزز واشمأزت تقاسيم وجهه!.

دلف بطرقة البيت الضيقة متعقباً مصدر الرائحة، حتى وصل إلى باب إحدى الغرف، تمتم:

- إذا الرائحة لكِ أنتِ؟!.

قهقه بصوت عال، وتملكته ضحكات مجلجلة، ثم فتح الباب ودلف إلى الغرفة المظلمة، فجأة؛ توقف عن الضحك، وخرج مسرعاً، مذعوراً مردداً:

- القداحة ... القداحة!.

خطف القداحة من فوق المنضدة، ثم عاد سريعاً، دخل الغرفة، أشعل القداحة، وجد الغرفة خالية من أيما أثاث سوى تابوت خشبي مقفل ومسجى أرضاً..

اقترب من التابوت، أطفأ القداحة؛ جثا ركبتيه أمام التابوت، وصله؛ رفع يده، أشعل القداحة أمام وجهه؛ جحظتْ عيناه، وراح يتفحص التابوت بنهم وانتشاء!.

تحسس بيده سطح التابوت متمتماً:

- إذا أنتِ أيتها الراحلة ... كان الصوت لكِ، والرائحة أيضاً لكِ، رغم أنكِ تركتني لازلتُ أحبكِ... ولكن ماحدث لكِ تستحقينه!.

ثم قهقه بسعادة غامرة حتى سعل عدة سعلات، وخشخش صدره، فتوقف ورفع بصره الى الأمام، أغمض عينيه، ثم عاد بذاكرته إلى الخلف..

*****

أطفأ القداحة، فسمع صوت زوجته تقول:

- ألم تعدني بأنك ستقلع عمَّا تتعاطاه؟.

كان الزوج جالساً على طرف السرير مرتدياً منامته، وممسكاً بين أنامله سيجارة مشتعلة، وكانت زوجته تجلس أمام المرآة تتأمل وجهها، وكانت ترتدي قميص نوم أسود طويل، في إضاءة منبعثة بوهن من أبجورتان على جانبي السرير ..

- هلمٍ فأنا مشتاقُ إليكِ؟.

قالها بصوت حنون، فنظرت إليه، هبتْ واقفة، قالت غاضبة:

- لن تلمسني إلا بعدما أن تنفذُ وعدك لي؟.

دك السيجارة بمنفضة فوق منضدة لصق السرير، هب واقفاً، قال لها بلهجة ناعمة يستجديها:

- حبيبتي ... صار لنا شهور ولا أذكر أن نمنا على سرير واحد أبداً، في كل مرة تخرجين لي بذريعة تلو أخرى، لقد سئمتُ صدقيني!.

صاحت به:

- أنا التي سئمتُ منك ومن وهنك، وحتى إن نمنا في سرير واحد، ما الذي باستطاعتك أن تفعله؟ ستقبّلني قبلتين، وقبل الثالثة ستكون قد بللت نفسك، وتنقلب على جنبك وتعطني ظهرك، وتتركني ملتاعة شبقة...أليس كذلك؟.

نقأ وجهها وأدمعت عيناها وأكملت:

- بلاها قربة منك، سأذهب لغرفة ابنتي، لأنم بجانبها، فعلى الأقل سترتمي لتنم بحضني، ولن تعطني ظهرها مثلك يا سبع الرجال!.

طأطأ الزوج رأسه أرضاً، وانهد جالساً، على السرير وأسند ظهره إلى حافته، وزم رجليه وتقوقع على نفسه، وبدأ ينحب نحيباً شديداً، عندها اقتربت زوجته منه، قالت:

- لماذا تبكي الآن؟ أنت من أوصلتنا لهذا الوضع، لقد عشنا ثلاثة أعوام جميلة، كنت جيداً معي لم تقصر في واجباتك الزوجية، وكنت أظنك خارقاً حتى اكتشفتُ أنك تضاجعني متعاطياً أقراص جنسية منشطة، وعودتني على قوتك المزيفة، والآن لم تعد قادراً حتى على ابتلاع قرص صداع، وأصابك الوهن والتلف، وأصبحتْ أنت والحائط سواء!.

رفع الزوج بصره، قال باستحياء:

- أنا احبكِ ألا تتحملينني؟

- وما الذي يجبرني على أن أتحمل نزقك وسذاجتك؟ أنا مازلتُ شابة ولن أدفن نفسي معك وأضحي بحياتي من أجلك أبداً.

- أنا أحبكِ... تحمليني... أرجوكِ؟.

- أنت تهذي ...

- سأقتلكِ ..

- لقد قتلتني من قبل كثيراً!.

- أنا أحبكِ أرجوكِ لا تتركيني؟.

استدارت وتركت الغرفة ذاهبة لغرفة الطفلة، فدفن رأسه بين ركبتيه ..

تمتمت الزوجة بسخط:

- إرهاصات جنون، ولن أعيش مع مجنون ... سأرحل!.

***

مرت ساعة، ومازال مدفون الرأس ينتحب، يغمغم، يتوجع، يئن!. وفجأة؛ رفع بصره، هب واقفاً وعيناه تقدحان بالشرر، خرج من غرفته مسرعاً، وجدها بالطرقة، ولم تدخل غرفة أبنتهما بعد، صاح حانقاً:

- أنا لستُ مجنوناً، أنا لستُ مجنوناً أيتها العاهرة!.

استدارت له، فتوقف محله، حدجته، ثم عادت إلى وجهتها صامته لتدلف غرفة الطفلة بآخر الطرقة..

فجأة؛ سُمِعَتْ صرخةً مدويةً سرعان ما انكتمتْ، بعد أن هوى الزوج على رأسها بملة انتزعها سريعاً من السرير، فوقعت صريعة، فأثنى عليها بعدة ضربات قوية حتى تهشمت رأسها تماماً، فسالت الدماء، وتناثرتْ على الجدران، وتلطخت الأرضية، وتطايرت الأشلاء، وتدحرجت عين من عينيها، فلحقها ودهسها بقدمه ضاحكاً فانفجرت، فتدحرجت الأخرى، لحقها وبعد مراوغة دهسها أيضاً، ثم تنفس بأريحية، وكأنه حملاً كان جاثماً فوق صدره، فأزاحه وارتاح!.

دنا منها، صدره يعلوا ويهبط، عرقه يتصبب، تُرسم على وجهه ابتسامة باردة؛ ألقى الملة المخضبة بالدماء جانباً، جرها من رجليها ذاهباً إلى غرفة نومه، مخلفاً بالطرقة خطاً عريضاً من الدماء، ومن فُتات رأسها!.

- عاهرة... سآخذ حقي منكِ دون أن تفتحي عينكِ في، أو تتحججين ثانية؟.

تمتم بها، وقبل أن يدخل الباب، دوتْ صرخة الطفلة لمَّا رأت أمها جثة مضرجة بدمائها تجر جراً، صاحتْ:

- أمي؟!.

جرى ناحيتها الأب ومسكها من كتفها، قال لها:

- هل تحبين أمكِ؟.

ارتعشت الطفلة، ولم تقو على النظر بعيني أبيها الداميتين، صرختْ:

- أُحبها... أُحبها؟!.

وانخرطت في وصلة بكاء، قال الأب بغيظ:

- إذاً فلتذهبي إليها؟.

وجدها تفلتتْ وارتمت فوق جثة أمها تبكي وتتمتم بصوت محشرج:

- أمي... أمي... لا تموتِ يا أُم...

فجأة وقعتْ بجانب أمها جثة هامدة، إثر تناول أبيها الملة وضربها على رأسها بقوة هشمته سريعاً:

- إذهبي أنت وأمك إلى النار؟.

مزق قميص نوم زوجته، بعد أن طرحها على السرير، وهم ليضاجعها، وجدها باردة، قال:

- بعد قليل ستتوهجين أعدك بذلك؟.

ضاجعها سعيداً، مقهقهاً، مستمتعاً، وبعد أن انتهى؛ وجد نفسه قد تلطخ بالدماء، ووجد السرير وملاءته وأرضية البيت قد أغرقتهم الدماء، حتى الطرقة بها جثة طفلته ومن حولها بركة دماء، تمتم:

- الدماء أطفت جمالاً على تصميم البيت، سأدعها كما هي!.

ارتدى ثيابه:

- كانت تقول أني لستُ رجلاً، وقد أثبتُ لها أني رجلاً!.

ثم همَّ بلف جثة زوجته بملاءة السرير، وبعدما لفها، أخرجَ ملاءة أخرى من الصوان ولف جثة الصغيرة..

وحمل الجثث، ودخل إحدى غرف البيت الشاغرة، وترك الجثتين بداخلها، ثم نزل مسرعاً إلى قبو المنزل، كان مظلماً، أشعل المصابيح، فبدا له مكتظاً بأكوام من الأساس القديم المتهالك، وقف متفحصاً حتى عثر على تابوت خشبي، استخلصه، ثم أزال عنه الأتربة، وحمله وصعدَ إلى الطابق الثاني ..

وضع التابوت بالغرفة الشاغرة، حمل الجثتين وألقاهما بداخله، ثم وضع فوقه غطائه، وتنهد بارتياح، ثم خرج ليشرب الخمر نخب المضاجعة اللذيذة..

****

فجأة؛ عاد من ذكرياته، وجد نفسه بالغرفة المظلمة أمام التابوت، سمع جلبة شديدة بالخارج، خرج مسرعاً، فتح باب الشرفة، وجد سيارة شرطة بالطريق الصغيرة الممهدة بين الأجمة الخضراء الموصلة لباب بيته، وقد انتشر ضوء سارينتها، تمتم مذعوراً:

- يريدون أن يأخذونها مني! لن أسمح لهم... لن أسمح!.

سمع طرقات على الباب قوية ومتتالية، دخل الغرفة مسرعاً، أشعل القداحة، جر التابوت خارج الغرفة، وضعه بالصالة، فتحه؛ وجد به ملاءتين نظيفتين مفروشتين به؛ جحظت عيناه، صرخ مذعوراً:

- سرقتموهما مني يا لصوص! سأقتلكم... وربي سأقتلكم؟!.

وركض صوب الباب، فتحه على مصراعيه، فدخلا رجلان ضحمان يرتديان لباساً أبيضاً، وبيدهم بذلة بيضاء، أكمامها مقلوبة!.

أمسكوه، ألبسوه إياها من الأمام، وجرجروه على السلم إلى أسفل، ثم أدخلوه في سيارة منقوش عليها "مستشفى الأمراض النفسية" وكان معهما رجلان آخران، أعطوه حقنة، فخارت قواه واستسلم للإغماء!.

****

طرحاه على سرير السيارة الصغير وقيداه فوقه بالأحزمة ذات الأبازيم، وجلسا من حوله، وانطلقت السيارة ..

نظر أحد الجالسان من خلف زجاج النافذة إلى الطريق قائلاً:

- لقد توقفتْ الأمطار!.

- الحمد لله.

- أتعرِفُ أنه مسكين؟!.

- لماذا؟.

- كانا يعيشان بسعادة هو وزوجته، لولا أنه أصبح مدمناً للخمر والعقاقير، وأصبح دائم المشاجرات معها، حتى استحالت الحياة بينهما إلى عراك دائم، وذات مرة تشاجر معها كعادته فتركت له البيت وأخذت طفلتهما معها، وأبلغت عنه بأنه مجنون وخطر، وكان كلما رآها أمامه، تفاجأ بها وقال لها: "أنا قتلتكِ بالأمس كيف بُعِثتِ اليوم؟" فخافت أن يقتلها بالفعل وهربت بطفلتها..

- ياله من معتوه!.

ولاذا الاثنان في ضحكات لا إرادية، وفجأة، فتح الزوج عينيه، ثم قال متعجباً:

- كيف بُعِثتْ ثانية وقد قتلتها منذ أسبوع؟!.

المسيح الدجال

وسط ظلام ناعم؛ جلستُ فوق جدار بيت بلاسقف بعد أن تسلقته من الداخل، نظرتُ أمامي، وجدتني على جانب طريق طويل يقطعه رأسياً - غير بعيد - طريق آخر، وكان ظلامه خافت، وتتناثر على أسفلته بعض نقاط مضيئة بنور أصفر واهن، وتلوح البيوت على جانبيه كسحابات دخان سوداء كبيرة منبعجة لا تبين منها أي معالم..

وقفتُ فوجدتُ نفسي فوق هضبة عالية، تقع على ضفاف نفس الطريق، ويحيط بحافاتها نور واهن قادم من الأسفل، فكرتُ قليلاً، قلت:

- سأتقدم!.

بدأتُ السير فوق الهضبة إلى الأمام، فجأة؛ سمعتُ همهمةً من خلفي، استدرتُ؛ كان ظلاماً خافت، لمحتُ شبحان يصعدان إلى الهضبة لاهثين، وكأنهما يهربان من خطر ما؛ دققتُ البصر، وجدتهما شاباً وفتاة، ركضتُ صوبهما، ودونما أي تفكير، حملتُ الشاب وقذفته من أعلى الهضبة، وكذلك الفتاة أسقطتها خلفه، والغريب أنهما لم يصرخا، ولم

أتبينُ ملامحهما أبداً، بل كانا خفيفين جداً وكأنهما بالونات منتفخة..

ندمتُ على قتلي لهما، وفكرتُ في النزول من فوق الهضبة، فجأة؛ وجدتُ نفسي بالطريق وقد اجتزتُ التقاطع إياه، وأتقدمُ نحو حشد من أشباح بشر باهتو الألوان لا تبين لهم رؤوس كاملة، يهتفون بكلمات لا أسمعها، وقد استحال الجو نهاراً، وكان بجانبي شخص يرافقني لا أعرفه ولا أرى ملامحه، بدا لي كشخص من دخان أزرق لم تتشكل ملامحه بعد، ولكن كان لدي أحساس بأننا أصدقاء، اقتربتُ أكثر، وقفتُ مذهولاً أبحثُ بعيني عن شىء ما.

فجأة؛ ارتفع رأس رجل ذا عنق طويل من بين الحشود، كان رأساً رفيعاً أصلعاً، بوجه أصفر قاتم ملوءه التجاعيد، وأنف معقوفة، وعينان واسعتان، نظر إليَّ وابتسم؛ صرختُ إلى صديقي المجهول:

- إنه المسيح الدجال!.

- كيف عرفتْ أنه الدجال مع أنه ليس بأعور؟.

- إنه هو صدقني، أنا أشعرُ بذلك!.

- وماذا سنفعل الآن؟.

قلت له بثقة:

- سنذهب معهم إلى السعودية، إنهم ذاهبون إليها، ومن ثم نتركه ونهرب لنتحصن بالمدينة أو مكة؛ فهما محرمتان عليه!.

تقدمنا في السير مع الحشد، وسبق الدجال الحشد، نظرتُ إليه، وجدته ينظر إليَّ بوجه ملؤه المكر، كان طويلاً، ربما تعدى الثلاثة أمتار، ساقيه كانتا في حجم عودين من القصب، مرتدياً سروالاً أسوداً ضيقاً، وصدره عريض، سألت صديقي:

- متى سيدعوا للدين الجديد ويقول أنه إله؟.

- ربما عندما يدخل السعودية!.

عندها شعرتُ بخوف، قلتُ لنفسي:

- فتنته لا أحد ينجوا منها إلا من رحم ربي، لابد أن أبتعد... لا سأرافقه وأواجه فتنته بتمسكي بإيماني... ولكني لوحدي

ليس معي سوى صديقى الغازي الذى سيذوب بالهواء في أي لحظة ويتركني وحدي... إذاً سأهرب!.

فجأة؛ وجدتني وصديقي المجهول وحدنا بنفس الموضع بالطريق، وقد استحال الجو ليلاً، قلتُ:

- سنذهبُ إلى مكة أو المدينة، فلن يدخلهما الدجال أبداً؟.

- حسنا، هيا من هذا الطريق حتى لا نقابله ثانية؟.

وأشار لنفس الطريق، الذي مرق منه الدجال، قلت:

- ولكن... كيف سنصل إلى السعودية؟ أنا لا أعرف الطريق إليها وربما نقابله بالطريق!.

وضاق صدري، وعدلتُ عن الذهاب، قلتُ:

- سأهرب منه إلى الجبال والمغارات والكهوف!.

وراحت تتحرك بمخيلتي صور أبواب المغارات الحديدية السوداء، وصراخ البشر بداخلها، وجنود المسيح بالمشاعل المتوهجة وسط الظلام ينقبون المغارات بالمعاول مزمجرين!.

تركني صديقي عند هذا الحد، ولا أعرف إن كان قد ذهب إلى السعودية أم هرب إلى أي مكان آخر، أم تبخر في الهواء، وركضتُ أنا بالطريق قاصداً الكهوف والمغارات، وبعد لحظات؛ ظهرتْ مرتفعات الجبال البيضاء أمامي وأنا بذات الطريق، فتساءلتُ: ما حجم قوة الدجال وعدد جنوده؟ وماذا لو وجدني؟ كيف أنجو من براثنه؟ هل سأستطع مقاومته أم سأهلك؟.

عندها أجبتُ على نفسي أطمئنها:

- ربما وقتها سيكن قد هبط المسيح بن مريم ويخلصني - بأمر الله - من فتنته!.

وفجأة؛ استيقظتُ فوق الفراش مُجهداً، فتحتُ نصف عيناي، وجدتُ نفسي نائماً أمام التلفاز أرضاً، تأملتُ الشاشة، صغتُ السمع؛ وجدتُ المذيعة بنشرة الأخبار تقول: "سيصل غداً الرئيس الأمريكي في أول زيارة له إلى السعودية..."

أطفأتُ التلفاز، أغمضتُ عيني، وشرعتُ في إكمال نومي..

ما إن سقطتُ في بركة النوم، حتى سمعتُ صوتاً مرعباً يصرخ بي حانقاً:

- هل كنت تظن نفسك قد هربت مني؟.

جسر من وهم

لم أذهب إلى المدرسة ذاك الصباح؛ بل أخرجتُ هاتفي من جيبي، واتصلتُ بها، ولمَّا فتحت الخط، قلت:

- إيه رأيك نطلع على الكوبري؟.

جاءني صوتها مُتعجباً:

- كوبري إيه يا بني دلوقت؛ ده إحنا داخلين على امتحانات! إنت مش بتهمد؟.

كنا بالصف الأول الثانوي آنذاك، وفي مدرسة مُشتركة واحدة. صمتُ لحظات ثم قلت:

- اقسم بالله لو ماجيتي يا رنا ل...

- جاية، جاية خلاص يا عماد!.

قاطعتني بها، ثم ضحكت، وضحكتُ أيضاً، ثم قاطعتُ ضحكتها قائلاً:

- بحبك على فكرة؟.

- على فكرة؛ أنا عارفة... بس نفسي أسألك: هو إنت ليه بتقولهالي كل شوية؟!.

- هو انتِ ليه دوناً عن بنات الدنيا كلها مش بتحبي تسمعيها كل شوية؟.

ضحكتْ، ثم سألتني مُتهكمة:

- إيه دة! هو إنت كنت بتقولها لبنات الدنيا كلها؟ آه ياخاين، يا كداب، يا غشا...

قاطعتها حانقاً:

- بس بقه يا رنا مضايقنيش؟!.

انفجرتْ ضاحكة بضحكتها تلك؛ تلك التي تُكسبني دائماً ثقة في نفسي؛ أنا من تُحبني صاحبة هذه الضحكة القادرة على دغدغة أصلب المشاعر قسوة، وأصلدها شكيمة. ولكنها دوماً تُناغشني لتُنعشني، ولتُهيج مياه الحياة الراكدة من حولي، لتترك فيّ دوماً مع كل اتصال معها؛ احساس بالتجديد، إنها تجعلني أشعر دائماً بأنني حي؛ وما معنى الحياة سوى أن تجد من تحبه ويحبك، نصفك الآخر الذي يشعر بألمك وأنت بعيد، ويشعر بفرح وأنت قريب، شخص قد خلقه الله ليكملك أنت فقط، صورتك حُفرت في قلبه أثناء تشكله في رحم الغيب!.

استطاعت أن تُثير حنقي كالعادة، ولكن سرعان ما رسبته كما أثارته، حينما قالت:

- أنا كمان على فكرة...

وصمتت، وبدأ قلبي يخفق بسرعة عجيبة؛ أعرف أنه لن يهدأ إلا عندما تنطقها، لذا سألتها:

- إنتِ إيه؟!

هدأ صوتها، التحفته رقة ونعومة، قالت:

- إيه!.

صحتُ بها:

- هو إيه اللي إيه يارنا؟.

لم تجبني سوى بضحكتها إياها، ولكنها باتت حنونة، دافئة، باستطاعتها اختراق جسد أي كائن حي، والانزلاق إلى شغاف قلبه، واستثارة خفقاته..

وفجأة؛ قالت بهمس بالكاد التقطته أُذناي:

- بحبك؟.

طردت تنهيدة طويلة، طُرد معها حنقي وغضبي، وهبطت دقات قلبي وتباعدت المسافة بين كل دقة ودقة كمسافة ميل!.

ونزلت دمعاتي حارة في صمت، وصمتنا كلينا دقيقة كاملة، حاولتُ فيها كبح جماح أنيني حتى لا يفضحني أمامها، وحتى إن فضحني؛ رنا تعرف كل شيء عني؛ تعرف لحظات ضعفي، وأوقات قوتي، تعرف كل نقاط ضعفي، وأنا أيضاً أعرف كل نقاط ضعفها، لأنها جميعاً متمثلة فيَّ أنا...

- إنت فين؟.

انتزعتني بسؤالها الهادىء من وهدة حنيني، ومن غيابات تفكيري، قلت لها بصوت كافحتُ كي يخرج من فمي مفهوماً:

- فوق الكوبري.

- كوبري إيه؟.

انفعلتُ مُجدداً:

- الله! هيكون كوبري إيه يعني يا رنا؟!.

- كوبري امبابة طبعاً.

- طب لما أنتِ عارفة بتوجعي قلبي ليه؟!.

صمتت ثم قالت بلهجة جادة:

- ماعاش اللي يوجع قلبك يا عماد...

- لأ عاش يا رنا، عاش، وبيكلمني دلوقت، وعمال يناكف فيَّ!.

- أنا!... ده أنا حبيبتك!.

- ما هو عشان حبيبتي؛ قلبي موجوع!.

ثم ران الصمت علينا، فكبحتُ دمعاتي، ونهضتُ من فوق درجة سلم الممشى فوق الكبري؛ لم يكن هناك مارة فوق حارتي المشاة الحديديتين أعلى الكوبري.

تحركتُ صوب الدرابزين والهاتف على أذني، رحتُ أتأمل النيل بالأسفل، ثم الجسور القابعة فوقه والغارقة في ضباب الصباح، وازدحام السيارت من فوقها؛ ذلك الازدحام الذي لا تنخفض ذروته في صباح أو مساء، ومباني الزمالك العتيقة، وقبالتها الأبراج الزجاجية الشاهقة التي تلمع من

نور الشمس، والمراكب الشراعية الشاقة المياه الخضراء بأبهة وهدوء، و قطع السحاب المتناثرة بالسماء..

ماذا لو لم أتزوج رنا؟ ماذا لو افترقنا؟! سألتُ نفسي، ولم أجد بداخلي جرأة على التفكير في أيما إجابة!.

- أنا جبيت؟.

كانت رنا، شعرتُ بها تطوقني من الخلف وتسكن، تنهدتُ بارتياح، وشُحِنتُ من جسدها بطاقة كهربائية لذيذة، تكفي لإنارة القاهرة عاماً دون أن تنضب..

قلت بصوت مُتهدج:

- كفاية كدة، لحد يكون معدّي يشوفنا على الوضع ده يفهمنا غلط؟.

تراجعتْ برأسها قائلة:

- طب نبدِل أماكنَّا عشان يفهمونا صح؟!.

ضحكتُ قائلاً:

- يا قليلة الأدب؟.

انفكت عني؛ وانتابتها ضحكات هيستيرية، استدرتُ محاولاً إيقاف نفسي عن الضحك، وجدتُ جسدها يهتز داخل تنورتها الكُحلية، وقميصها الأبيض، وقد اِحمَرَّتْ خدودها الوردية، والتمعتْ عيناها الكحيلتين، وعلى وشك إسقاط دمعاتها جراء ضحكها الشديد، وضعتُ الهاتف في جيبي، قلتُ:

- وحشتيني؟.

توقفت عن الضحك فجأة، وكأنها فركت ذر إيقاف قائلة:

- يعني خليتني ما اروحش المدرسة النهاردة، وجايبني من "شارع البوهي" مشي، عشان تقولي "وحشتيني" ما قولتهاش ليَّ ليه في التليفون ووفرت تعب رجليَّ؟!

امتعضتُ، عدتُ لتأمل النيل، وقفت بجانبي تتأملني، وضعت كفها الأبيض الناعم فوق كفي القابضة على الدرابزين، قالت بجدية:

- عايزة أقولك على حاجة، بس مش عايزاك تزعل؟.

استدرتُ مُتأهباً لسماع مَرزِئة، بعد أن نزعتْ يدها وراحت تفركهما ببعضهما البعض في حيرة وقلق، قلتُ:

- قولي بسرعة وقعتي قلبي؟!.

قالت مُحمرة الوجه:

- إنت كمان وحشتني!.

- يلعن أبو شكلك؟!.

خرجتْ رغماً عني، فعادت لضحكاتها، فهممتُ أن أوبِخها لولا أن أخرصني بوق القطار المار من أسفلنا وأزيزه المرتفع، الذي لو صحنا بجواره بأعلى صوتنا لبدا أننا صامتين..

****

حقاً؛ كانت ذكريات جميلة..

بعد ذاك اليوم بعدة سنوات؛ تزوجتْ رنا، وبعدما تزوجتْ ؛ أحببتُ نرمين ولكنها تزوجتْ، وبعدما تزوجتْ ؛ أحببتُ مريم، ولكنها تزوجتْ أيضاً، وبعدما تزوجتْ؛ أحببتُ سالي، ولكنها تزوجت هي الأُخرى!..

وأخيراً؛ تزوجتُ أنا منذ عام، وأنا الآن أحب زوجتي ريهام كثيراً..

والعجيبة أني - حتى الآن - لم أجرؤ على التفكير في إيجاد إجابة لذلك السؤال أبداً:

- ماذا لو لم أتزوج رنا؟!..

نظارة الحاسد

يحكى *أنه* كان هناك رجل بالعِقد الخمسين من عمره، كان معروف بالقرية أنه حاسد ذو عين صائبة، لا تحيد نظرته أبداً عن إيذاء من يحسده، بل والأنكى من ذلك أنه كان على علم تام بما توقعه نظراته في الناس من أضرار، لكنه كما كان يُحكى عنه كان غير قادر على منع نفسه من حسد الناس.

في البيت كان أولاده لا يأكلون كثيراً خشية أن تصيبهم عين أبيهم إن رآى أحدهم قد سمن جسمه، حتى أصبحوا ضعاف الأجساد شاحبي الوجوه..

وكانوا أيضاً يحبسون عنه البهائم من جاموس وحمير حتى لا يحسدها إن رآها سمينة، أو تُدر لبناً وسمناً وفيرين، بالاتفاق معه بالطبع، رغم أنه كان يتحرّق لرؤيتها ليطمئن على ماله، ولكنه حبذ هذه الفكرة كثيراً خشية إلحاقها بالأضرار..

وحدث ذات يوم أن صنع له أولاده نظارة بصر تُصغِّر كل الأشياء عن حجمها الحقيقي ثلاث مرات ليرتديها، وقالوا له: «هذه النظارة ستوقف الحسد». وأقسموا عليه ألا

يخلعها أبداً إلا وقت الاستحمام، داخل الحمام فقط، ولبسها مُنشدهاً سعيداً..

انحلت المشكلة، وعاد الأولاد يأكلون وردت إليهم صحتهم، وسمنت زوجته وربربت، وأصبح يدخل حوش البهائم ولا يحسدها؛ لأنه يراها أصغر من حجمها، وتوقف عن حسد الناس وحسد بهائمها..

حتى هو أصبح يرى الطعام أمامه ضئيلاً، فيأكل أضعاف ما كان يأكله..

صباح يوم ما خرج كالعادة إلى الحقل، وبعد العودة جلس على ناصية الشارع أمام داره، اقترب منه رجل ضعيف البصر، وجلس بجانبه، وبعد أن سلم عليه، أخذا يتحدثا، فقال ضعيف البصر: «سمعتُ عن نظارتك الجديدة، ويقولون أنها تُحسن الرؤية!»

«أجل هي كذلك!»

«اعطنيها أجربها، أريد أن أصنع مثلها؟»

خلعها الحاسد، بعد أن أغمض عينيه، فلبسها ضعيف البصر، ولمّا لبسها انكمش إلى الجدار مشدوهاً، وفجأة

دوّت صرخة من داخل البيت، فتح الحاسد عينيه، وأسرع إلى الداخل، فوجد زوجته واقعة، والجاموسة قد كسرت الباب الداخلي بين البيت والزريبة، فوقف أمام الجاموسة مأخوذاً من عافيتها، وضخامتها قائلاً:

«عفيّت وسمنت، إذاً من حقها أن تترك الزريبة وتدخل البيت لتأكل أكلنا الآخر!»

فغرت زوجته فمها لمّا رأته بلا نظارة، وأطلقت صرخة مدوية لمّا رأت الجاموسة قد سقطت أرضاً تلفظ أنفاسها الأخيرة!. نظر الحاسد إليها قائلاً :

«ألن تقومي لتر ماذا أصاب الجاموسة؟ أم عفيتي وسمنتي أنت الأُخرى؟!»

أطلقت الزوجة صرخة لم تكتمل، هرع على إثرها الأولاد من الخارج، فاستدار الحاسد يتأملهم جاحظ العينين، بينما ضعيف البصر مُنكمشاً بالخارج لا ينطق بحرف، مراقباً الحاسد خارجاً من باب داره نحيفاً كعود قصب منزوع الأوراق، يضرب كفاً بكف مُغمغماً:

- بيت وخَرُب!..

مزاح عفريت

كما اعتاد دائماً في نوبة حراسته الليلية؛ أن يطفيء مصباح ذلك الكشك الخشبي الصغير، ويترك الكشافات الكبيرة المثبتة أعلى الكشك لتنير له الطريق الترابي المقفر، وتكشف له عن بوابة ذلك المعسكر المهجور الذي يجلس أمامه لحراسته..

مجند شاب، في لباسه العسكري الأسود، ملقاة بندقيته الميري والخوذة، فوق منضدة خشبية بجانبه؛ كان جالساً على مقعد خشبي مثبت إلى جدار الكشك؛ يعبث بمحوِّل محطات مذياعه الصغير؛ باحثاً عن محطة الغناء..

شعر فجأة؛ بأن هناك قط أسفل الكرسي، يخربش بأظافره سمانتي ساقيه؛ نتر ساقيه بعيداً؛ انتفض واقفاً، أضاء المصباح، انتصب متعجباً ومتسائلاً : كيف دخل ذلك القط أسفل الكرسي؟ ومن أين أتى القط أصلاً وكل ما حولي صحراء جرداء؟.

قرفص أرضاً أمام الكرسي، تفصد العرق من جبينه؛ نظر أسفله متوجساً...

- أنا بهذر معاك ياعم، إنت مبتحبش الهذار ولا إية؟!.

قالها قط أسود ضخم، برأس إنسان صغير يكسوه الشعر الأسود، وتتوسطه عيني قط واسعتان. وقبل أن ينهيها؛ دوتْ صرخة المجند وانطرح جثة هامدة..

تمتم القط غاضباً:

- واضح إن الهذار قلب جد!.

ثم ذاب في الهواء كالدخان..

حانوت اللذة

كنت إذا ما لمحتها من بعيد واقفة، عرجتُ على حانوت البقالة حيث تنتصب خلف "البنك" تبيع لهذه، وتحاسب ذاك..

وإن كانت مُنشغلة مع زبائن؛ خطفتُ أيما شيء من فوق الأرفف لا يتعدى سعره الخمسة جنيهات، وتظاهرت بالانتظار، ونشأتُ أتنقل ببصري ما بينها وبين الزبائن، وحقيقة الأمر؛ لا ترى عيناي سواها..

تقترب هي من السادسة عشرة من عمرها، تمتلك جسم مخروط بحذق، ونهدين مستفزين، وبشرة بيضاء كالشمع، وعينين سوداوين كحيلين، وشفتان تخاطبان الزبائن بصوت كوشوشة الودع، لا يكاد يُسمع من نعومته وأنوثته..

أظل شارداً متأملاً قسماتها، وحركاتها، وطريقة نطقها للحروف، وأناملها البيضاء الرفيعة وهي تتناول الجنيهات بتأفف وإباء، ومراقباً لاهتزازات نهديها وتكورهما، تحت ثيابها الضيقة، ولمَّا تتحرك لتجلب شيئاً ويُصبح جسمها بالكامل أمام ناظري، أَنْشَدِه وأغبطُ عيناي على ما رأت من جمال ودلع، وتتماوج دقات قلبي مع تماوج شعرها المتهدل

مابين الهبوط والصعود، ويقشعر بدني قشعريرة تجدد بداخلي الرجولة الصدئة، ويُطلِق جوفي تنهيدة مُحمَّلة بصهد التفاعلات المُنعملة بداخلي..

ولا ينتشلني من بركة خيالاتي اللذيذة، ويقطع سعادة عيناي وقلبي، سوى صوتها الذي لابد أن يسجل مقاطعاً، ويوصف علاجاً سماعياً لمن هم مثلي، قائلة:

- خمسة جنيهات ياجدي؟.

حينئذ؛ أتذكر خجلاً من انحطاط خيالاتي أني ولجتُ العقد الخمسين من عمري منذ سنوات؛ أنقدها الثمن وأقبضُ على عصاي، وأدلف خارجاً صوب الطريق، رامقاً نُهديها نظرة وداع..

فرصة ضائعة

"*أخيراً* جاءتني الفرصة مُتدحرجة!."

قلتها في نفسي لمَّا لمحتُ تلك السيدة الثلاثينية التي بدا أنها من ذوات المال والأعمال؛ وذاك مادل عليه طراز سيارتها الفارهة، والأشياء الثمينة التي كانت تبتاعها من البقال في طريقها، وثيابها الغالية الناصعة، لولا ذاك القطع الصغير في بنطالها من دبر، والذي كان يُظهر لحم فخذها وأطراف لباسها الداخلي..

وقتئذ؛ فكرتُ في أنه قد قُد على حين غفلة منها، ولابد من تحذيرها، وتركت مقشتي وسلة القمامة البلاستيكية ذات العجلات، وهرعتُ ببذلتي الخضراء المُتسخة إليها - كانت قد ركبت سيارتها - مُمنياً نفسي بأن تشكرني بابتسامة رقيقة، وإيماءة جذابة، وتُطَبِقُ عشرة جنيهات، وتدفنها في كفي.

اقتربتُ منها، لم تتحرك بسيارتها وانتظرتني بنظرات مُلؤها التعجب، قلتُ لها هامساً، بعدما دنوتُ برأسي منها:

- بنطال سيادتك مقطوع من الخلف يا مدام، أنا قلت أَعَرَّف حضرتك يمكن مخدتيش بالك منه، عشان تستري نفسك؛ احنا عندنا ولايا برضك؟.

ابتسمت في وجهي هازة رأسها ذو الشعر الذهبي المُتهدل، ثم أخرجت من حقيبتها عشرين جنيهاً، ودفنتها في يدي قائلة:

- على فكرة دي الموضة يا عم الحاج... بااااي!.

وقفتُ مشدوهاً، ومتأملاً سيارتها المُنطلقة بعيداً، وصدى قهقهاتها يبتعد عن أذني كلما ابتعدت السيارة على الطريق!..

ذات سُفلى

- *أنا تعبان* قوي!.

في آخر اتصال بيننا؛ قلتها لها، فخرجت من جوفي متهدجة حارة مستغيثة، عمياء تتحسس طريقها صوب أيما طوق للنجاة، تتخبط داخل نفق بحثاً عن منفذ للهواء، أو بحثاً عن أيما قلب به رحمة أو بعض من بقايا مشاعر آدمية، ولكنها سألتني وكأنها غريبة عني، أو أنا غريب عنها، وتناست حبي لها، وحبها لي، أو تظاهرت بالتناسي بعدما اختارت الفراق بقلب مُطمئن حفاظاً على ماء وجهها، قالت:

- إيه اللي تاعبك؟!.

صمتُ، ولكن عيناي أبت الصمت، وسحت الدموع بلا مكيال، واشتعلت ناراً في أركان قلبي فانقبض، وازداد رجيفاً..

- مش بتاكل؟.

سألتني؛ أجبتها فخرج صوتي كصوت قادم من جوف الأرض، وقد سلخته الصخور والمعادن، فصار نسيلة عجفاء:

- باكل ياستي!.

- مش بتشرب؟.

- بشرب!.

- مش صحتك كويسة وبتشتغل؟!.

- الحمد لله؛ بشتغل أيوة!.

صمتت برهة ثم سألت بلهجة الموقن بالإجابة، الذي يعرف مابي، ولا أدري أكانت تريدني أن أجيبها وأقول لها"أنتِ" لتزداد كبرياءً فوق كبريائها! أم تريد لنحيبي أن يعلوا لتسمعه، وتزداد ذاتها السفلى تصخماً وسعادة بقهري، وجرحي وتذليلي، ثم تركيعي!..

- أومال إيه اللي تاعبك؟!.

أعرف أنها تعرف، ولكني قررتُ أن أعيد على مسامعها ما تعرفه، وتود أن تسمعه بحرقة، فقد راود مُخيلتي آنذاك مشهد كانت هي بطلته، مشهد من المُستقبل البعيد؛ رأيتها تبكي، وتندم أنها تركتني رغم علمها بقدر محبتي لها، وتتذكر كل كلمات الحب التي ألقيتها على آذانها الصماء، وقلبها الغُلف، وتزدري أيما سبب تحججت به قديماً لتُحِل لنفسها الفراق،

وكلما تذكرتْ كلماتي؛ ازداد نحيبها، وتيبس جسدها، وشحب وجهها، وسقطتْ في وهدة الوحدة أكثر فأكثر!.

إذاً هنيئاً لك المُسقبل بآلامه وأتراحه، وهنيئاً لي الماضي بذكرياته وأفراحه!. قلتُ لها وأنا على شفير الموت:

- اللي تاعبني، هو قلبي... اللي لسه بيحبك!.

تلجلت، تلعثمت، اغتاظت، نطقت جملتها التي بدا أنها قد استظهرتها جيداً، وخرجت كعزاء من يعزي في قتيل، قتله بيديه:

- أنا مبحبش حد!..

عيون أنثى

كُنت دوماً أحار من طبيعة نظرات الإناث، وما يقال عنها..

يقال أن نظراتهن تختلف عن نظرات الرجال!.

نظراتهن وإن كانت خاطفة لاتكاد تشعر بها، فهي كافية لتجسيد نُسخة منك وتعتيقها على رف من رفوف عقلها المتينة ... غريب أليس كذلك!.

أما نظراتنا نحن معشر الرجال، فتلتقط صورة واحدة لا أكثر، وتضعها على أهم رف برفوف عقولنا، أما الصورة فهي للجسد وأحياناً لقطة عابرة للوجه، سرعان ما تبهت ألوانها، وتضيع خطوطها وتتشابك مع خطوط عشرات الوجوه التي قابلناها حقيقة وخيالاً..

أعتقدُ أن هذا ما حدث معي؛ لم تكن نظرتها الخاطفة مجرد عابرة سبيل، بل كانت بكل تأكيد ذكية مُتفحصة! وأنا كنتُ جاهلاً بتلكم الحقيقة، حتى أتى يوم وطفح إنائها بقطرات الوله المُلتهبة، ولم تجد بداخلها عزماً لكبح جماح قلبها المُتيم..

اِعترضَتْ طريقي، حينما كنتُ ماراً بالطُرقة الضيِّقة صوب مكتب مدير القسم الذي أنتمي إليه بالشركة التي كنا نعمل

بها، وكانت هي خارجة منه، كانت مُتأنقة بملابسها السوداء، وبشرتها النضرة البيضاء، التي ما إن تراها حتى تشعر أنها مُضاءة بكهرباء خفية!.

كانت قامتها متوسطة الطول، وممتلئة الجسم، امتلاءً جذاباً، يجعلك تشعر بثقلها ليس على الأرض، ولكن في الحياة، وفي القلوب!.

أشارتْ بيدها إليّ كي أتوقف، ثم تلعثمتْ حروفها، ولم تنطق. وشرد عقلها يرتب كلمات؛ كنتُ واقفاً وبيدي حزمة أوراق، بانتظارها أن تَخرُج كلماتها، ولكنها تأخرتْ، عندئذ اضطررتُ أن أقول أي شيء، وما وجدتُ سوى تلك الجملة، فقلتها بتلقائية:

- تبدين أنيقة اليوم؟

ثم صَمَتُ أتأملها؛ أقسم أني سمعتُ أزيز مكابح التروس بعقلها، والتي توقفت فجأة، بسبب مُقاطعتها من قِبَلي.
ولازلتُ أتذكر أثر وقع الكلمات على وجهها الذي نقأ فجأة، وتناوبتْ شتى الألوان على زخرفته، وعيناها السوداوان الواسعتان الكحيلتان، اللتان تعلقتا بي لحظات، كطفل هددته

أمه بالرحيل عنه، وتركه وحيداً، ثم سقطتا أرضاً في خجلِ وصمت أنيقين!.

هل كانت تحبني، وأنا لا أدري؟!

هل كانت ستعترفُ، والجرأة هي التي نقصتها؟!

تساءلتُ، ولكن ما جدوّى تساؤلي حينذاك، إذ سمعتُ جرس مكتب المدير، فأفقتُ من تأمل صمت حيائها الجميل، ودلفتُ صوب المكتب، ثانياً رقبتي، أراقبها بعيناي، وهي تدلف صوب القسم الذي يجمعنا، تقدم ساقاً وتؤخر أخرى!.

أتذكرها دوماً؛ كانت تداعبني بنظراتها، وتهدهدني برموشها، وتدثرني بحاجبيها. كنت أشعر بصهد حنانها؛ في زمهرير الشتاء يدفئني، وفي قيظ الصيف يُنعشني؛ كان يغادرها، ويصلني حيث أجلس على المكتب، المُقابل لمكتبها، لا تفصلنا سوى مسافة لا تتعدى المترين، ومن حولنا العواذل... بقية الزملاء.

حتى وأنا مُنهمك في الأوراق، أشعر بأنها تنظر إليّ، فأرفع رأسي فجأة، فأجدها تختطف رأسها، وتجبره على الإطراق، مبتسمة ابتسامتها العذبة إياها... أليس ذلك بحب!

كان حبها لي ظاهراً للعيان؛ ابتسامتها التي تُجبرني أن أبتسم إذ رأيتها، مُرتسمة على وجهها، في أي حالة كنتُ، أو كان مزاجي، تأمرني أن أسعد، فأسعد. تنتشلني من وهدة الضيق، إلى رحابة آفاقها، حيث لا حدود لأي شيء كان ذا حدود قديماً!.

توقفتُ قبل أن أقبضُ على مِقبض باب مكتب المدير، فكرتُ: تزوج التي تحبك؟ هكذا يقال دائماً، وما أدراني؟ لربما أحبها، أو أنني مع الأيام سأحبها، وخاصة أني لم أحب فتاة حتى الآن!.

تراجعتُ سريعاً، وقصدتُ القسم، ولمّا دخلته، وجدتها تنظر لي باستغراب ممزوج بابتسامة شجعتني على أن أقول لها وللجميع آنذاك:

- هل تقبلين أن تتزوجيني؟.

شغروا أفواههم والتزموا الغمز واللمز، أما هي فضحكتْ، ولكنها ضحكة جديدة؛ لم أرها مُنطبعة على وجهها من قبل، ثم قالت بسخرية:

- أنت مثل أخي، دعك من المزاح يا زميلي العزيز، وعُد لعملك؟.

ما هذا الهراء!؟ صُدمت، وتلجلجت، وسخر مني عُذالي، وتطايرت ضحكاتهم في كل الاتجاهات!.

تأبطتُ أوراقي، وغدوتُ نحو مكتب السيد المدير خائباً، سادراً، مُتسائلاً:

وماذا عمّا كنت أشعر به منها!؟.

دخلت المكتب، ووقعنا الأوراق، ثم دلفت صوب الباب، وهممتُ أن أخرج، لولا أن استوقفني مديري قائلاً:

- إنها تحبك... هكذا أوصتني أن أقل لك، لأنها تستحي منك..

ضحكات من الماضي

الولادة...

منذ أيام؛ انضمت موظفة جديدة الى العمل، وكان مكتبها بجوار مكتب "كمال" وفي أول يوم عمل له بعد الأجازة؛ جلس منكباً على العمل بشراهة، وفجأة؛ صدح صوتاً أنثوياً جميلاً يلقي التحية عليه..

رفع بصره ليرد تحيتها؛ انتفض واقفاً لا يصدق ما يرى؛ إنها "عزيزة" بشحمها ولحمها، بنفس ملامحها، نفس ابتسامتها، نفس رقة صوتها!.

ذُهل وتعجب كثيراً، وحدث ذلك الانجذاب الغريب بين الاثنين من أول نظرة، وهام بها شارداً يتخيل خطبته عليها ، وزواجه بها

ثم أفاق وذهب ليتعرف إليها وعلى وجهه ابتسامة أمل...

الموت....

أعلن "كمال" خطبته منذ خمسة أشهر ، على فتاة من بلدته بالجنوب..

لا أحد من الزملاء بالعمل يعرف عن حياته الشخصية كثيراً، وغير ذلك فهو شخص غير اجتماعي بالمرة ، ولا يحب الثرثرة ، والخوض في الأحاديث التي لا تجدي نفعاً..

خطيبته تدعى "عزيزة" وكانت جارته، وكانت فتاة رائعة الجمال؛ طويلة القامة، منحوتة القوام، بيضاء البشرة، عيناها سوداوتان واسعتان كحيلتان، وكانت الأجمل بالقرية. كان كمال يكن لها معزة وحباً ليس له حدود ، وكانت هي أيضاً تبادله نفس الشعور ، وكانا الاثنين قصة العشق الأشهر بالقرية..

الأطفال كانوا يعرفون أن كمال يحب عزيزة، وعزيزة تحب كمال، بيد أن كمال كان كتوماً، ولا يفشي أسراره لأحد ، لكن الحب هو من أفشى السر في هذه المرة. فلا يوجد مكاناً في تلك القرية إلا وله ذكرى لهما، ولا يوجد جذع شجرة إلا وحفرا عليه قلب يخترقه سهم الحب وبطرفيه حرفيهما..

****

كانا جالسان بجوار بعضهما البعض على ربوة خضراء يشاهدان غروب الشمس خلف النخيل والحقول، كانا

متلاصقين؛ عزيزة في جلبابها المزركش بالورود، وطرحتها الموشاة بالترتر، وكمال بجلبابه الفضفاض، وشاله المصبوغ، مسك يديها، قال:

- ما عدتُ أهتم لشروق الشمس مذ أن أشرقتِ على حياتي!.

ابتسمت بملء شدقيها، قالت:

- أنا لم أولد حين وضعتني أمي ، ولكني ولدتُ حينما وضعتني بحضنك الدافيء.

طوقها، وقبل رأسها، وغربتْ الشمس..

****

تمت الخطبة وفَرِحَ من فَرِح وحَزِنَ من حزن؛ فقد سبق وتقدم لخطبتها الكثير من شباب القرية؛ لكنها رفضتهم جميعاً من أجل معشوقها؛ كمال.

لبسا خاتما الخطوبة؛ جلسا مع بعضهما البعض بشرفة دار العروسة الواسعة المطلة على حقول القمح الخضراء؛

متقابلان يتأملان بعضهما البعض في صمت؛ كانت عزيزة ترتدى فستاناً أحمراً، وشعرها الناعم منسدل على كتفيها.

كان كمال مرتدياً بدلةً سوداءً، وغير بعيد في باحة الدار؛ تردد الفتيات الأهازيج، والضحكات، كسرت عزيزة الصمت قائلة :

- سأنهض لأحضر لك شيئاً حتى تتذكرني به في سفرك... قاطعها كمال:

- ومتى نسيتكِ حتى أتذكركِ !؟.

وصمتا الاثنين فينة ثم أردف كمال قائلاً :

- أنت الروح لجسدي، وفراقكِ الموت... قاطعته عزيزة:

- ليجعل الله يومي قبل يومك حبيبي؟.

- سلامتكِ من الموت ، إن شاء الله سنعيش ونتزوج وننجب أطفالا كثيرين ، فدعكِ من تلك السيرة ، وقولي لي ، ماذا كنتِ ستحضرين لي ؟ فلا يوجد عندي أجمل من وجودكِ معي!.

وقفت عزيزة؛ دلفت داخل الدار؛ أحضرت صندوقاً خشبياً صغيراً مطعم بزخارف مذهبة، ثم جلست، ومدته إليه، قالت:

- لا تفتحه هنا بل بعد وصولك إلى القاهرة ؟.

ابتسم، تناوله منها، وضعه على حجره، أضافت:

- أغار عليك من فتيات القاهرة ، فإنهن يضعن زينتهن ويرتدين الملابس الخليعة ، أخشى أن يفتننك بجمالهن وحركاتهن... قاطعها:

- لا أستطيع أن أنظر لأى فتاة سواكِ، وإن فعلتها ونظرت لإحداهن رأيت صورتكِ ، لأنكِ عيني التي أرى بها-ثم مسك يديها-صدقينيلم ولن أشعر بالأمان والحب إلا بين أحضانك، لذا دعكِ من هذا المزاح يا عزيزة على قلبي ، ودعينا نسترق تلك اللحظات الحلوة من العمر؟.

قالت عزيزة بصوت متهدج :

- أحياناً أشعرُ بخوف شديد وأشعر أن تلك الفرحة التي نحياها لن تطول ، وكثرما رأيتك بأحلامي وأنت حزين تبكي ولا أدري لماذا !.

نزلت دموع عينيها الكحيلتين على خديها الميسين في صمت ، فكفكف كمال دمعاتها بيده، فقبلتها، قالت:

- أخشى أن يُكتَب علينا الفراق فأموت، أنا أتعذب وأتلوى من نار الاشتياق عندما تسافر ، فما بالك بالفراق ؟ عدني يا كمال أن لا يفرقنا سوى الموت؟.

- أعدكِ!.

قالت ودموعها تنهمر :

- وأعدك أني سأحبك حتى بعد موتي!.

****

وصل القاهرة؛ عاد لشقته، جلس بالشرفة ، فتح الصندوق فإذا بداخله "الدمية القماشية الصغيرة" التي تحتضن قلباً من القماش ، والتي قد غزلتها عزيزة منذ أن كانا طفلين وكانا يلعبان بها سوياً؛ أُحيك عليها مؤخراً عبارة "سأحبك حتى بعد موتي"

ارتجف كمال وتساءل:

لماذا تكرر كلمة "الموت" أنه لأمر مقلق!.

***

بعد مرور أسابيع؛ اتصل أحد أهل القرية بكمال، قال:

- عزيزة في خطر لابد أن تحضر حالا لتساعدها؟!.

لمَّا قالها المتصل؛ انقبض قلبه وتلاحمت نبضاته، لم يستطع الانتظار أو الاستفسار وانتابه الذعر والخوف والحيرة والقلق ..

بدل ملابسه، ذهب إلى موقف السيارات، استقل سيارة خاصة حتى يصل بأسرع وقت إلى القرية حتى يعرف ماذا جرى هناك؟ وليطمئن على حبيبته..

***

وصل كمال إلى أطراف القرية ، زاد انقباض قلبه أكثر فأكثر؛ فوجيء من بعيد بأن القرية جميعها قد تجمعت أمام منزل عزيزة!

ركض كالمجنون يصرخ بالناس :

- ماذا يحدث ؟!..

ولكن أحداً لم يجب! بدأ يركض بين صفوف الناس وهو يكرر صرخاته :

- ماذا حدث؟... أين عزيزة؟.

تيقن لحظتها أن هنالك مكروه ما يحدث لها!.

فبدأت الدموع تنهمر ودقات القلب تكاد تنفذ من صدره، ظل يصرخ ويصرخ ولم يعره أحد اهتماماً، إلا مصمصة الشفاة ، دون أية إجابة، فزادت حالة الغموض المحيطة بنفسيته ، فازدادت سوءً فسوءً!.

وصل أخيراً أمام باب دارها ، ومن حوله حلقات وصفوف من الرجال والنساء، ووجد النياح والعويل من أهل الدار ..

وجد "أم عزيزة" جالسة على الأرض ، وتهيل فوق رأسها التراب وتنوح بطريقة مفزعة، اِنهار أمامها "كمال" نزل على ركبتيه يتأملها كطفل نزل تواً إلى الوجود..

نظرت إليه الأم وتوقفت لثوان عن النياح والعويل بيد أن يديها قابضتان على التراب، نظرت لعينيه فوجدته غارقاً بدموعه، أمسك يديها وسكب التراب من قبضتيها ثم قال لها بصوت مبحوح :

- ماذا يحدث... أين عزيزة ؟

صرخت به :

- عزيزة ألحقت بنا العار، وتركتهم يغتصبونها! وأخذها أبوها إلى بطن الجبل ليغسل عاره ويدفنها..

أشارت إلى الجبل القريب، لم يصدق كمال هذا الحديث وتوقف عقله وقلبه لثوان، ثم عاد إلى الحياة مرة أخرى..

لم يكن أمامه خيار إلا أمل منعدم وهو اللحاق بهم قبل أن يمسسها أذى؛ ركض كمال صوب الجبل ، وكانت الصفوف عن يمينه وعن شماله من المتفرجين من أهل القرية كثيرة..

كلما جرى أكثر وقع على سمعه عبارات تقذف ممن اصطفوا في طريقه ، فيقول أحدهم :

- إنها عاهرة وتستحق!.

ويقول آخر :

- تعودت على فعل الرذيلة وبدأتها مع فتى المدينة!.

ويقول غيرهم :

- لا توجد فتاة يمكن اغتصابها رغماً عنها أبداً!.

ولكنه لم يكترث فخوفه ولهفته وشغله الشاغل اللحاق بعزيزة ليس إلا!.

****

وصل إلى الجبل ، وبعد أن صعده ، سمع صراخها وبكاؤها واستغاثاتها، ركض صوب الصوت ، فوجد رجال من عائلتها مسلحين بالبنادق ، ومنعاه من العبور بالقوة!.

نظر إلى بطن الجبل فوجد عزيزة مكبلة بالحبال ، وأبوها واقف أمامها يحدجها وبيده بندقيته، لمحته عزيزة فصرخت :

- انجدني يا كمال؟ لا تتخلى عني يا حبيبي؟ أنا بريئة لاتصدقهم؟ أنت تعرف بأني مخلصة لك لوحدك؟!.

فصرخ كمال :

- لا تقتلها أرجوك ... انتظر ؟.

ثم انسل من بين الرجال المسلحين ، ونزل ناحيتها، أشهر أبوها سلاحه نحوها ، ثم أطلق وابلا من الرصاص على جسدها الضعيف الرقيق..

وقعت عزيزة على الأرض ، لتلفظ أنفاسها الأخيرة، وهرب الأب بعيداً عنها ، بعد أن سمع صوت سارينة الشرطة..

لم يصدق كمال مايحدث لحبيبته أمام عينيه ، ولا يفهم سبب كل هذا ، وجرى عليها فوجدها غارقة في بحر دمائها ..
ذُهل عقله ، ورفض مايحدث؛ ظل يبكي ويبكي ، مسك بيدها يقبلها بحرارة ، وهو غارق في بحر دموعه ، وقال لها بصوت متهدج من شدة نحيبه :

- لقد عدتُ إليكِ ... لماذا أنتِ راحلة؟ لا تتركيني ... أرجوكِ لا تتركيني ...فلن أستطيع العيش بدونكِ هيا انهضي؟
اعطني فرصة أخرى...فرصة واحدة أرجوكِ أريد أن أُحبك، أتزوجكُ، أريد إنجاب أطفال منكِ، يشبهونك ولا يشبهونني؟.

فكانت جاحظة العينين كأنها تتأمله ، وتنظر إليه وهو قابض على يديها الباردتين ..

لقد كان هو آخر ما رأته عيناها بهذه الدنيا القصيرة الأمد، كان بالنسبه لها كل شئ جميل ، والحلم الوحيد في حياتها والذي لم يتحقق!.

صرخ كمال ثم فقد الوعي وسط بركة دمائها . أتت الشرطة للمعاينة، ونُقِل كمال إلى المستشفى..

****

ظل في غيبوبة تامة بضعة أيام ..

قال الأطباء : إن كمال لن ينجوا من تلك الغيبوبة الناتجة عن جلطة دماغية حادة نتيجة صدمته العاطفية.

ولكن القدر كانت له حسابات أخرى!.

وفجأة؛ عادت الحياة إلى كمال فوق سرير المستشفى ، وأفاق من الغيبوبة ، وعاد طبيعياً، وقتئذ؛ اندهش الأطباء أيما اندهاش!.

وبعد الفحوصات والتحاليل والجلسات الحوارية مع كمال ، اكتشف الأطباء "أنه أصيب بفقدان ذاكرة جزئي".

فهو لا يتذكر شيئاً عمَّا حدث لعزيزة، وكان آخر ما يتذكره هو قدومه للقرية بلا سبب يتذكره. لم يقبل عقله الحادثة ، فرفض تخزينها بذاكرته، وحدث الخلل والفقدان..

عندما سأل أهلهعن سبب وجوده بالمستشفى ، فأجابوه :

- حادث بسيط ..

فسأل عن عزيزة فأجابوه :

- ذهبت مع عائلتها لزيارة أقارب لأمها بإحدي محافظات الشمال ولا يوجد أحد من عائلتها بالقرية!.

****

قفل عائداً إلى لقاهرة، وعاد إلى عمله، ولكنه أصبح مشغولا على عزيزة، ومتي ستعود،

وأصبحت تراوده تلك الأحلام التي لا يرى بها إلا الظلام ويسمع تلك الضحكات الآتية من ماضٍ سحيق ، وتشبه ضحكات عزيزة بل هي ضحكاتها!.

ساورته شكوك كثيرة فسافر الى القرية غير مرة ، ليستقصِ أية أخباراً عن عزيزة أو أي أحد من أُسرتها ..

ولكن كل ما استطاع أن يعرفه أنهم لن يعودوا إلى القرية الآن . واحتمال كبير أن لن يعودوا أبداً! فقد باعوا أرضهم ومنزلهم وسيعيشون في إحدى محافظات بحري!.

لقد أُبرم إتفاق بين معظم أهل القرية على طي السر وكتمان ماحدث مراعاة لمرضه..

تَفَقَد كمال ذكرياته بالقرية حزيناً، ثم عاد الى القاهرة حانقاً غاضباً مكسوراً..

****

لم يصدق كمال أي شيء وتدهورت حالته النفسية ، ولم يتخيل أن عزيزة تخلت عنه بسهوله .. ومازال عنده أمل كبير أن تعود لأحضانه ثانية ، فهو يعرف مدى حبها له، وظن أن ما يحدث له مزحةً وستأتِ يوماً ما وتطرق أبوابه بكل الشوق والحنين ..

كان كمال يجلس بشرفة الشقة بالقاهرة، ينفخ دخانه، فدق الهاتف، نهض سريعاً، أجاب:

- مرحباً؟.

- أستاذ كمال أنصحك أن تنسى عزيزة؟.

- لماذا تقول لي هذا الكلام ومن أنت أصلاً؟

- لأنني رأيتها؛ لقد تزوجت برجل قريب لأمها من بحري، لقد كان حبها لك تعلق لا أكثر ، وما إن رأت ذلك الرجل وعشقته حتى تعلقت به أكثر منك وتزوجته!..

- أرجوك... ان كنت تعرف عنوانها فاعطنيه؟.

- من الأفضل أن تنساها مثلما نسيتك هي؟.

- مستحيل... من أنت بالله عليك؟ من أنت؟.

- أنا فاعل خير!.

- أين هي أرجو...

ثم انتهت المكالمة..

****

استأذن له أصدقاؤه في أجازة لعشرة أيام؛ حزم أمتعته وذهب إلى إحدى المدن الساحلية لعله يجد التحسن والصفاء هناك!.

ولكن راودته تلك الأحلام غير مرة، وذات الضحكان غير مرة، جلس على الشاطيء ، ووضع أمامه على الطاولة الصندوق الخشبي الصغير، تأمله.قديماً تمنيتُ لو أنني شخص خارق ، وبمقدوري أن أغزوا العالم لإعادة كل حبيب لحبيبه ، ولما هجرني الحبيب وجدتُ نفسي عاجزاً عن استعادة حتى طيفه ، فأيقنتُ عندها أنني بشر لا أستطيع تغيير مجريات الأقدار.

قالها في نفسه متألماً، نظر إلى البحر شارداً، تمتم:

- سأرضى بنصيبي وقسمتي ، وإن كانت قد تزوجتْ حقاً، فأتمنى لها السعادة من كل قلبي ، أما أنا فمن الآن سأبحث عن سعادتي أيضاً، رغم أني متأكد أنها قد أخذتها معها إلى الأبد!.

فتح الصندوق، أخرج الدمية، وضعها أمامه، قال:

- أنتِ كاذبة لقد تخليتِ عني واخترتِ-ثم سالت دمعاته- غيري ، في وقت أنا في أمس الحاجة لكِ فيه ، فالآن ما عدتُ أحتاج لغروب الشمس بعد أن غربتِ عن حياتي ،

سأبحثُ عن شمس جديدة تشعرني بالدفء ولا تأفل مثلكِ أبداً..

ثم نظر إلى الدمية؛ رأى وجه عزيزة ينأى عن النظر إليه، قال:

- لا تتكبرِ؟ أنا كالشمس التى ترسل للأرض أشعتها، فتبدأ صيرورة انقشاع الظلام وبزوغ النهار، وأنتِ كالقمر الذي يعقبني ويطل على الأرض في غيابي، وبنور استمددته مني لتبدأ صيرورة الليل ذو النور الخافت، ليل السحر ، ليل الشاعرية ، ليل الحب... فإن كنتِ قمراً فأنا من أعاركِ نوره الذي جعلكِ قمراً يتغنى به... لا تتكبرِ؟.

ثم بدا عليه بعض إصرار مع كثير من الحزن، قال:

- وداعاً يا دميتي سأضعكِ بين الذكريات الأليمة ، لأبدأ في صناعة ذكريات جديدة؟.

ثم أدخل الدمية في الصندوق، وأغلقه بقفل ثم وضعه في الحقيبة، وانتهت أجازته وعاد إلى القاهرة..

***

منذ أيام؛ انضمت موظفة جديدة الى العمل، وكان مكتبها بجوار مكتب "كمال" وفي أول يوم عمل له بعد الأجازة؛ جلس منكباً على العمل بشراهة، وفجأة؛ صدح صوتاً أنثوياً جميلاً يلقي التحية عليه..

رفع بصره ليرد تحيتها؛ انتفض واقفاً لا يصدق ما يرى؛ إنها "عزيزة" بشحمها ولحمها، بنفس ملامحها، نفس ابتسامتها، نفس رقة صوتها!.

ذُهل وتعجب كثيراً، وحدث ذلك الانجذاب الغريب بين الاثنين من أول نظرة، وهام بها شارداً يتخيل خطبته عليها ، وزواجه بها

ثم أفاق وذهب ليتعرف عليها وعلى وجهه ابتسامة أمل..

صدر للكاتب:

- مولاتي والدمار _ خواطر pdf _ 2017
- وحدي بين حُطام العالم _ مجموعة قصصية _ pdf 2017
- وفاء الجن _ رواية pdf _ 2017
- مشاعر آلة _ قصة قصيرة _ ورقي _ 2015
- ستموت الليلة _ قصة قصيرة _ ورقي _ 2018
- مقالاتي _ مقالات pdf _ 2018
- سقوط القاهرة _ مجموعة قصصية pdf _ 2018

سيصدر قريبًا إن شاء الله:

- أنشودة الموت/اللحم والمش _ مجموعة قصصية ورقي
- زرزور بالألوان _ قصة للطفل pdf